الدراســـات التاريخيــة والحضاريــة

أثـــر الأوضــاع البيئيـــة
على الحياة الاجتماعية في مكة

منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري
((دراسة تاريخية - حضارية))

إعـــداد

د. عبد العزيز بن راشد السنيدي

أستاذ مشارك، قسم التاريخ

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

جامعة القصيم

ملخص البحث

جاءت فكرة البحث من خلال إدراك الوضع البيئي الذي تعيـشه مكـة، ومـا كـان يتعاقب عليها من تقلبات بيئية متباينة أثرت إيجاباً أو سلباً على الحيـاة فيهـا وبخاصـة الحيـاة الاجتماعية، في وقت لم تسلط الدراسات الحديثة الضوء على هذا الجانب المهم رغـم تـأثيره الواضح على حياة السكان بمختلف جوانبها. ومع اليقين أن تأثير الوضع البيئي على الحيـاة الاجتماعية في مكة لم يقتصر على فترة بعينها، إلا أن الفترة التي اختيرت للدراسة قد شهدت

وضوحاً أكثر لهذه التأثيرات في ظل تكاثر أعداد السكان في مكة وتنوع أجناسهم، فضلاً عن انتعاش معظم مناحي الحياة فيها. وتتمثل الأوضاع البيئية في ظواهر كونية متنوعة وأشكال وتأثيرات مناخية متعددة وتقلبات مختلفة كالأمطار والسيول والفيضانات، وشح المياه، وانخساف الآبار، وغور العيون، والصواعق، والزلازل، والحرّ والبرد والرياح والعواصف، وكذلك انتشار القحط والجفاف، وظهور الآفات المختلفة، والأمراض والأوبئة، وغيرها. وقد ألقى البحث من خلال ذلك الضوء على تعريف البيئة وملامح من جغرافية مكة، ثم تناول أثر الأوضاع البيئية السائدة في مكة على حجم السكان وتركيبتهم الطبقية وتوزيعهم وكذلك عن حياة السكان المعيشية والصحية والأمنية والاقتصادية وعادات السكان وتقاليدهم إضافة لأثرها على بعض المرافق التي تخدم القاطنين في مكة. وقد توصلت هذه الدراسة ـ التي اعتمدت على مصادر ومراجع أصيلة ومتنوعة ـ إلى أن الوضع البيئي في مكة كان ذا أثر فاعل في جوانب شتى من الحياة الاجتماعية خلال الحقبة المحددة للدراسة، وكان له العديد من الآثار السلبية والإيجابية على حياة المجتمع المكي حينذاك.

* * *

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. أما بعد:

حظيت مكة ـ بما نالته من قدسية ومكانة في نفوس المسلمين ـ بنصيب وافر من الكتابات المختلفة التي غطت جوانب سياسية وحضارية متنوعة من تاريخها عبر العصور المختلفة، ومع ذلك فإننا نلحظ من خلال التتبع الدقيق لما كتب عن مكة في المجالات التاريخية المتنوعة عدم تسليط الضوء من قبل المهتمين على جانب مهم أثر ـ بشكل مباشر وغير مباشر ـ في مناحي الحياة العامة بشتى جوانبها، تلك هي الأوضاع البيئية بمؤثراتها المختلفة وأشكالها المتباينة، والتي تعد من صنع الله وليس للبشر فيها يد أو تدبير. ونظراً

للوضع البيئي الذي تعيشه مكة وما تعاقب عليها من تقلبات بيئية متباينة أثرت إيجاباً أو سلباً على الحياة فيها، فقد رأيت أن اكتب عن أثر الأوضاع البيئية على الحياة الاجتماعية منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، حيث اتضحت الظواهر البيئية خلال هذه الحقبة بشكل ساعدنا في الوصول للكثير من المعلومات المفيدة، كما تكاثرت أعداد السكان في مكة، وتنوعت أجناسهم، إضافة إلى ذلك فقد انتعشت معظم مناحي الحياة في مكة حينذاك، كل ذلك يجعل من الدراسة أكثر وضوحاً وأعمق فائدة.

وتتمثل الأوضاع البيئية التي سوف نتحدث عنها في ظواهر كونية متنوعة وأشكال وتأثيرات مناخية متعددة وتقلبات مختلفة تعرضت لها مكة خلال الحقبة التاريخية المذكورة، ومن أبرز ذلك ؛ الأمطار والسيول والفيضانات، وشح المياه، وانخساف الآبار، وغور العيون، والصواعق، والزلازل، والحرّ والبرد والرياح والعواصف، وكذلك انتشار القحط والجفاف، وظهور الآفات المختلفة، والأمراض والأوبئة، وغيرها. وحيث أن الآثار السلبية للبيئة هي الأعمق ـ غالباً ـ في التأثير على الحياة الاجتماعية فسوف نرى طغيان هذا الجانب على ما خلفته من آثار إيجابية على الحياة نفسها

ووفق متطلبات الدراسة وما توفر من مادة علمية فقد تم تقسيم الموضوع إلى قسمين رئيسين، بعد وضع مدخل قبلها تحدثنا فيه باختصار عن تعريف البيئة ومفهومها مع لمحة عن أبرز الملامح الجغرافية في مكة. وقد جاء القسم الأول بعنوان: أثر الأوضاع البيئية على البنية السكانية في مكة، وتناولنا من خلال ذلك أثر هذه الأوضاع على حجم السكان، وكذلك على التركيبة الطبقية لهم، إضافة لأثر البيئة على التوزيع السكاني. أما القسم الثاني فكان عن أثر الأوضاع البيئية على حياة السكان في مكة، وقد تحدثنا فيه عن أثر البيئة على الجوانب المعيشية والصحية والأمنية والاقتصادية، إضافة لأثرها على عادات السكان وتقاليدهم، وكذلك على بعض

المرافق التي تخدم المقيمين في مكة. وقد أنهيت الدراسة بخاتمة ضمت أبرز النتائج التي توصلنا إليها. وذُيّلت بقائمة المصادر والمراجع التي اتكأت عليها.

مدخل:

البيئة هي: الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، كما يمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر (١). وقيل أن البيئة: مجموع العوامل الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تتجاور في توازن وتؤثر على الإنسان والكائنات الأخرى بطريق مباشر أو غير مباشر (٢).

وفي قوله تعالى: ((له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى)) { طه ٦٩ } مفهوم شامل وكامل لمكونات البيئة وما تحتويه من عناصر ومؤثرات مختلفة (٣).

ومفهوم البيئة لا يقتصر على الوسط المادي للإنسان، وإنما يشمل كل ما يحيط به (٤)، ولذا فليس باستطاعة الإنسان أن يحيى بعيداً عن البيئية ولا بمعزل عنها ما دامت تقدم له العناصر الحياتية من طاقة وغذاء وكساء وهواء وماء وغيرها (٥). والإنسان بما حباه الله من فكر وإدراك وقدرات يستطيع أن يحول الظواهر البيئية المختلفة لصالحه (٦).

وتتنوع المخاطر البيئية حسب مصادرها التي أراد الله عز وجل لها أن تكون، وهي إما أرضية (عمليات جيولوجية وجيومورفولوجية)، وأما جوية (طقسية ومناخية)، أو مخاطر حيوية ترتبط بالأمراض والأوبئة والحشرات (٧).

وإذا نظرنا إلى الوضع البيئي الثابت لمكة، والمتمثل في وضعها الجغرافي فنرى أنها تقع ضمن المنطقة الغربية من الجزيرة العربية، والتي تعرف جيولوجياً بالدرع العربي، وتتشكل تضاريسها من جبال وتلال مختلفة الأشكال والارتفاعات، كما تتسم بالقمم الحادة والوديان الفسيحة العميقة (٨). ويتراوح ارتفاع مستوى مكة بتضاريسها المختلفة عن سطح البحر ما بين ٢٤٠م إلى ٩١٩م (٩).

أما مناخ مكة فهو ـ بوجه عام ـ شديد الحرارة في الصيف، دافئ في الشتاء (١٠). أما أمطارها فتتميز بالشح المفرط في كميتها الساقطة بالإضافة إلى تذبذبها وتساقطها على فترات متباعدة خلال أيام وساعات محدودة، وليس لها مواعيد محددة، بل تسقط فجأة، وقد يسقط في يوم واحد أكثر من مجموع كمية المطر السنوي، الأمر الذي يؤدي إلى حدوث السيول والفيضانات، كما أن الأمطار قد تسقط في عام واحد وتنقطع لعدة أعوام متتالية (١١).

وبالإضافة لهذا الواقع البيئي الذي فرضته جغرافية مكة فقد تعرضت هذه المدينة خلال الحقبة التاريخية التي تُعنى بها الدراسة للكثير من المؤثرات والتغيرات البيئية، سواء كانت تلك ظواهر كونية، أو أشكال وتأثيرات مناخية، أو تقلبات جوية، أو غير ذلك مما ستتعرف عليه من خلال حديثنا القادم عن أثر الأوضاع البيئية بواقعها ومتغيراتها المختلفة على الحياة الاجتماعية في مكة.

أولاً: أثر الأوضاع البيئية على البنية السكانية في مكة:

أعملت البيئية بأوضاعها المتباينة ومظاهرها المختلفة تأثيرات عديدة أدت إلى تخلخل البنية السكانية وعدم استقرارها في مكة إبان الفترة التاريخية التي نتحدث عنها ؛ سواء كان ذلك من خلال تأثر حجم السكان، أو اختلاف تركيبتهم الطبقية، وسوف نبين

في السطور التالية مدى تأثيرات البيئة آنذاك في هذه الجوانب.

١ ـ أثر الأوضاع البيئية على حجم السكان.

إذا نظرنا إلى حجم السكان في مكة فإننا نلحظ التأثير الواضح للأوضاع البيئية على هذا الجانب، حيث أثّرت طبيعة مكة الجغرافية، فضلاً عن بعض الكوارث والأزمات البيئية في قلة عدد من سكانها. من جانب أخر فقد أدى الوضع الديني لمكة، إضافة للاستقرار ورغد العيش في مكة في فترات تاريخية أخرى ـ وبسبب بعض التأثيرات البيئية أيضاً ـ إلى استقطابها لعدد من السكان.

فالمعروف أن مكة بطبيعتها الجغرافية بلد فقير، لا تتوفر فيه الكثير من مقومات الحياة المعيشية التي يحتاجها الإنسان، ومن أبرزها قلة المياه فيها (١٢)، وقد أكد القرآن الكريم فقر مكة على لسان إبراهيم عليه السلام عندما قال واصفاً طبيعة أرضها: ((ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)) { إبراهيم ٣٧ }. فهذه الأوضاع البيئية المتمثلة في فقْد مكة لأحد المقومات الاقتصادية المهمة قد أجبرت سكانها على الاعتماد على غيرها من البلدان، فكان التموين الغذائي يأتيها عن طريق التجار الذين يقدمون ببضائعهم من البلدان القريبة والبعيدة عبر البر والبحر (١٣)، أو تُبعث لأهلها الأعطيات والصدقات من الخلفاء والسلاطين والموسرين (١٤). ومع ذلك فإن هذه الموارد المعيشية غير مضمونة، حيث تنقطع في بعض السنوات عن الوصول إلى مكة لأسباب عديدة، منها ؛ توتر العلاقات بين الحكومات القائمة آنذاك (١٥)، أو حدوث بعض الكوارث البيئية التي تجتاح المناطق التي كانت تغذي مكة (١٦)، كما تقل بسبب فرض مكوس ترهق كاهل

التجار والحجاج وتمنعهم من جلب السلع إلى مكة [١٧]. وندرك أثر هذا الوضع البيئي لمكة وحاجتها الماسة للدعم والمساندة الغذائية من الخارج لتجاوز هذه المشكلات والأزمات عندما نراها تتعرض لبعض الكوارث، يقول ابن جبير مبيناً ذلك ـ وهو يتحدث عن الوضع المعيشي في مكة عند قدومه إليها سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م ـ [١٨]: ((توالى مجيء السرو اليمنيين في رفاق كثيرة بالميرة من الطعام وسواه وضروب الإدام والفواكه اليابسة، فأرغدوا البلد، ولولاهم لكان من اتصال الجدب وغلاء السعر في جهد ومشقة، فهم رحمة لهذا البلد الأمين)).

وكان لهذه الأوضاع البيئية الفقيرة التي فرضها موقع مكة الجغرافي المجدب أثر في تخلخل تركيبتها السكانية حيث نرى أن تكالب الفقر على البلد مع قلة الأقوات القادمة إليه في بعض الأوقات كانت دافعاً لهجرة الكثير من السكان آنذاك [١٩]، فضلاً عن كونها مانعاً لعدد أخر من القدوم إلى مكة [٢٠].

وفي تتبع الأوضاع التي سادت مكة خلال القرون المعنية بالدراسة كشف للكثير من الظواهر والكوارث البيئية التي أثرت في تركيبتها السكانية، وتُعد الفيضانات [٢١] المتمثلة في السيول والأمطار التي تجتاح مكة في بعض السنوات [٢٢] من أبرز الكوارث البيئية التي تسببت في تناقص السكان في مكة وبالتالي تخلخل تركيبتهم الديمغرافية فيها [٢٣]، وتتحفنا المصادر بمعلومات وافرة عن فقدان مكة ـ أما بالغرق، أو الموت تحت الهدم ـ الكثير من سكانها خلال القرون التي خصصناها بالدراسة. ومن ذلك ـ مثلاً ـ ما حصل سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م حيث مُطرت مكة سبعة أيام متواصلة، مما أدى إلى سقوط بعض الدور على بعض السكان [٢٤]. وفي سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م مات بمكة خلق عظيم وذلك على أثر سيول عظيمة اجتاحت مكة ؛ منهم من حملته هذه السيول، ومنهم من مات

بعد أن سقطت عليهم الدور (٢٥). وفقدت مكة في مكة سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م خمسمائة وسبعين نفساً عقب سيل عظيم دخل مكة وبقي حوالي أربعة أيام في المسجد الحرام (٢٦). كما مات عدد من سكان مكة بعد سيول غمرتها في سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، يقول الفاسي مبيناً أثر هذا السيل في فقدان مكة عدد من سكانها (٢٧): ((وغرق بعض المجاورات من النساء اللواتي في المساطب، وخرب بيوت كثيرة، وغرق بعض أهلها، وبعضهم مات تحت الردم، وكان أمراً مهولاً)). وفقدت مكة في سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م حوالي ألف إنسان بعد أمطار وبرَد كبير الحجم وسيول اجتاحت مكة حينذاك (٢٨). وفي سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م مات في مكة نحو ستين إنساناً بعد سيول جارفة داهمت البلد (٢٩). ومات عقب سيل دخل مكة في سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م تحت الردم اثنا عشر شخصاً، كما غرق في هذه الحادثة أيضاً ثمانية أنفس (٣٠). وذكر الكردي أن مكة فقدت من سكانها سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م مائة وثمانون نسمة على أثر السيل الذي دخل المسجد الحرام آنذاك (٣١).

من جانب أخر فقد تسبب نقص الماء في مكة ؛ سواء كان ذلك لقلة الأمطار، أو غور الآبار، إلى حدوث قحط في المنطقة، وقد نتج عن هذا القحط هلاك العديد من الأنفس ؛ ومن ذلك ما حدث ـ مثلا ـ في سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م عندما مات كثير من أهل مكة جوعاً بسبب قحط عم المنطقة (٣٢). ولم يقتصر الأمر على أهل مكة فقط وإنما تعدى ذلك إلى الحجاج القادمين إليها ؛ ففي سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م هلك خلق كثير من الحجاج القادمين من مصر بعد هبوب رياح محرقة، أدت إلى جفاف ما معهم من قرب الماء (٣٣). وفي سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م قدم من بلاد اليمن عدد كبير من الحجاج، فلما وصلوا إلى يلملم بالقرب من مكة أصابهم عطش عظيم هلك فيه

ألف نفس منهم (٣٤). ومثل ذلك ما حدث لحجاج مصر سنة ٨٣٤هـ عندما هلك منهم حوالي ثلاثة آلاف ما بين رجل وامرأة بسبب العطش (٣٥).

ومن الكوارث البيئية التي تسببت في هلاك السكان في مكة الأوبئة والأمراض، ومن ذلك ما حدث سنة ٥٤١هـ-١١٤٦م عندما تفشى مرض انتفاخ الحلق، خصوصاً بين الحجاج، فمات على أثر ذلك خلق كثير منهم (٣٦). وفي أخر شهر رجب من سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م كان في مكة فناء عظيم توفي بسببه خلق كثير في مكة، يقول الفاسي مبيناً ذلك (٣٧): ((خرج من مكة شرفها الله تعالى في يوم واحد اثنتان وعشرون جنازة، وفي يوم خمسون جنازة، وعدّ أهل مكة ما بين العمرتين من أول رجب إلى سبع وعشرين من رجب نحو ألف جنازة)). كما وقع وباء مشابه في سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م أهلك الكثير من أهل الحجاز، وكان يموت من أهل مكة في كل يوم نحو من عشرين شخصاً، وقد دام هذا الوباء مدة، ثم ارتفع عن الناس (٣٨). وفي سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م انتشر وباء في مكة راح ضحيته عدد من سكان مكة. ثم اجتاح مكة وباء عظيم سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م بلغ فيه عدد الموتى في بعض الأيام أربعين شخصاً (٣٩). وفي وباء سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م فقدت مكة الكثير من سكانها، يقول الفاسي (٤٠): ((.. في سنة سبع وعشرين وثمانمائة حصل بمكة وباء عظيم عامٌّ، نقل الموتى فيه من كَبُر اسمه أو مكانه، يزيدون على الألفين أو يقاربون ذلك، وكان كثيراً ما تجتمع من الجنائز عقب صلاة الصبح أو العصر سبع أو أكثر، وكان يموت في كثير من الأيام بضع وعشرون))، وذكر نجم الدين ابن فهد أن هذا الوباء دام أشهراً (٤١). كما أعقب الأمطار والسيول التي جاءت مكة سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م وباء بمكة (٤٢)، بلغ عدة من يموت يومياً حوالي خمسين نفساً (٤٣). وقد هلك في

الوباء الذي عمّ بلاد الحجاز سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م عالم لا يحصيهم إلا الله، بحيث صارت ـ على حد قول نجم الدين ابن فهد ـ أموالهم ونعمهم لا مالك لها واستولى عليها سواهم (٤٤). ويقول نجم الدين ابن فهد عن موت فشا بمكة سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م (٤٥): ((وفيها ـ في أوائلها ـ وقع بمكة موت عظيم مات فيه جماعة من أهل مكة والغرباء وكانوا جمعاً كثيراً منهم من يقضي نحو اليوم واليومين والثلاثة بدأ الإسكات وتنخيم الدم)).

وقد عُرف عن ريح مكة تسببها أحياناً في هلاك الناس، وقد أشار المقدسي إلى ذلك فقال ـ وهو يتحدث عن المناخ في مكة (٤٦): ((ويكون بالحرم حرٌّ عظيم وريح تقتل)). كما كانت الرياح سبباً في انتشار الأوبئة التي تفتك بالناس في مكة (٤٧). وكذلك في جفاف المياه، ومن ثمَّ إصابة الناس بالعطش والموت (٤٨).

وكان للجوع والغلاء اللذان يقعان في مكة في بعض السنوات، نتيجة لقلة الأمطار أو على إثر بعض الكوارث البيئية الأخرى، دور كبير في الحد من النمو السكاني، حيث يخلفان وراءهما الكثير من الوفيات بين أفراد المجتمع المكي ؛ ومن ذلك ما حصل سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م عندما تعرضت مكة لغلاء شديد جداً، هلك خلاله جماعة كثيرة في مكة من الجوع، بعد أن عدمت الكثير من الأقوات الضرورية فيها (٤٩).

ومن الكوارث التي كانت سبباً في فقدان مكة بعض سكانها، وبالتالي إحداث تخلخل في التركيبة السكانية، الصواعق المهلكة، والتي مات على إثرها بعض أهل مكة ؛ ومن الكوارث التي وقعت في الفترة التي نتحدث عنها ـ مثلاً ـ تلك الصاعقة التي وقعت سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م على مئذنة باب علي بن أبي طالب،

وأودت بحياة علي بن محمد بن عبد السلام الكازروني المؤذن فيها (٥٠). كما ذكر الفاسي أن صاعقة وقعت قبل سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م هلك بها بعض مؤذني الحرم الشريف (٥١). وفي سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م وقعت في مكة بعض الصواعق التي قتلت مجموعة من أهلها ؛ منها صاعقة على جبل أبي قبيس قتلت رجلاً، وصاعقة بمسجد الخيف بمنى قتلت رجلاً، وأخرى بالجعرانة قتلت رجلين (٥٢). وراح ضحية صاعقة وقعت في أسفل مكة سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م أربعة أشخاص (٥٣). وعلى أثر صاعقة مات خمس أنفس في شعب عامر سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م (٥٤).

من جانب أخر فإن بعض الكوارث الطبيعية المتمثلة بالقحط والجفاف البيئي وما يترتب عليهما من انتشار المجاعات وغلاء الأسعار وتفشي الأمراض والأوبئة بين الحين والأخر في أوساط المجتمع المكي، قد أسهمت في تأثر حجم السكان بعد أن أجبرت عدد من القاطنين في مكة على النزوح عنها(٥٥)، ومن ذلك ما حدث ـ مثلاً ـ سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م عندما رحل الكثير من أهالي مكة عنها بسبب القحط وشدة الجوع وانتشار الأوبئة والأمراض (٥٦). وعندما قلت الأقوات بمكة سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م بسبب انعدام المطر أضطر عدد من قاطنيها إلى تركها بسبب الحاجة للمعيشة (٥٧). ومن ذلك ما حدث ـ أيضاً ـ سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م عندما اشتد الغلاء في مكة فتفرق أهلها في سائر الأقطار حتى خلت مكة من معظم سكانها (٥٨). وكذلك ما حدث سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م حيث نزح من مكة أكثر أهلها بعد مجاعة شديدة لم يتحملها السكان (٥٩).

بيّد أن قدسية مكة وشرفها العظيم من بين البقاع، فضلاً عن بعض مظاهر

الأحوال البيئية التي سادت في مكة خلال الفترة التاريخية التي نتحدث عنها كانتا سبباً في جذب بعض السكان إلى مكة وبالتالي التأثير على التركيبة السكانية فيها، وفي تقليب صفحات كتب التراجم ـ خصوصاً المكية منها ـ كشف للعديد من الشخصيات التي قدمت للاستقرار الدائم في مكة من مختلف الأجناس خلال حقب التاريخ المختلفة ـ ومنها الحقبة التي نتحدث عنها، والتي شهدت نزول الكثير من أبناء الأمصار الإسلامية فيها. كما كان الرخاء الذي تنعم به مكة في بعض الأزمنة من جراء نزول الأمطار ورغد العيش أثر في تشجيع الناس للاستقرار الدائم في مكة، أو البقاء فيها فترة من الزمن ؛ ومن ذلك ما حدث ـ مثلا ـ سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م حيث كثر في مكة المجاورون في هذه السنة بعد أن رأوا توافر المؤن الكافية في الأسواق المكية (٦٠). من جانب أخر فإن حياة المجاورة والاستيطان فيها لنيل شرف النزول في هذه البقعة الطاهرة قد خلقت على مرّ السنين أسراً كبيرة لم تلبث أن أصبحت جزءاً من المجتمع المكي، وأفادت هذا المجتمع في كثير من المجالات (٦١)، ومن هؤلاء ـ مثلاً ـ بنو فهد والطبريون وبنو ظهيرة والنويريون والفاسيون وبنو الضياء وغيرهم الكثير ممن استقر في مكة إبان العصر المملوكي.

٢ ـ أثر الأوضاع البيئية على التركيبة الطبقية للسكان:

عندما ننظر إلى طبقات المجتمع في مكة نلحظ مدى تأثير واقع البيئة وأوضاعها المتباينة في إحداث بعض التغيرات على تركيبة السكان الطبقية، فقدسية المكان ـ بأبعادها المختلفة ـ حتمت وجود بعض الطبقات في المجتمع المكي ؛ كالمجاورين والنزلاء، الذين أصبحوا مع مرور الزمن جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المكي، ورغم وجود هذه الشريحة منذ الوهلة الأولى من ظهور الإسلام (٦٢)، إلا أن الملاحظ تزايد أعداد المجاورين عن ذي قبل ـ ولأسباب متعددة ـ خلال القرون من السادس حتى

التاسع الهجرية (٦٣). كما فرضت قدسية المكان ـ أيضاً ـ وجود شريحة أخرى أنضمت للبنية السكانية في مكة، ألا وهم أولئك الأشخاص الذين قدموا إلى مكة للقيام ببعض الوظائف والمهام الدينية والإدارية والتعليمية والمهنية الموجودة في المسجد الحرام خاصة ومكة بصفة عامة، وقد تكاثرت أعداد هؤلاء مع تزايد الاهتمام بمكة والحرم المكي الشريف خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، وإنشاء الكثير من المرافق الخيرية المتنوعة في مكة، مما استوجب معه وجود أناس يقومون بهذه المهام، وإدارة بعض المرافق والمنشآت المختلفة، سيما في ظل قلة المؤهلين في مكة حينذاك (٦٤).

وكانت مكانة مكة التجارية التي جاءت نتيجة لموقعها الجغرافي ومواسمها الدينية والتي جعلتها من أهم مراكز التجارة العالمية في العصور الإسلامية (٦٥)، قد اقتضت قدوم بعض العناصر إليها لممارسة بعض الأنشطة التجارية في المجتمع المكي، وقد تنوعت جنسيات هؤلاء القادمين إلى مكة، كما تعددت جهات قدومهم. ومن هؤلاء التجار من استقر في مكة استقراراً دائماً، في حين قام آخرون منهم بالتردد إليها في بعض السنوات (٦٦).

وكما أن قدسية المكان وما وعد الله سبحانه أهله من وفرة الرزق واستتباب الأمن قد زادت من أعداد الطبقة العامة في أوساط المجتمع المكي، سيما في سنوات الرخاء والاستقرار، فإن هذه الطبقة ـ والتي تسودها حياة الفقر في الغالب ــ كانت عرضة للتأثر السريع بالكوارث المختلفة التي تجتاح مكة، فيذهب الكثير من هؤلاء ضحية هذه الوقائع، أو يتركون البلد إلى غيره بحثاً عن لقمة العيش، ولا شك أن لهذا التذبذب وذاك أثره في عدم الاستقرار الطبقي لفئات المجتمع المكي حينذاك.

من جانب أخر فقد كان للكوارث والمشكلات البيئية المتنوعة وما تخلفه من مجاعات وانتشار للأوبئة وغيرها في مكة أثر واضح في تخلخل التركيبة الطبقية

للمجتمع المكي، فاضطرار الناس بعد اجتياح هذه الكوارث إلى بيع ما يملكون لشراء ما يقتاتون به، يزيد من أعداد الذين لا يملكون عقب هذه الأزمات، ومن ثم يدخلون ـ في ظل هبوط المستوى الاقتصادي لهم ـ في عداد المعدمين. ومع توالي الأزمات تكثر فئة المعدمين في المجتمع، كما تقل ـ أيضاً ـ طبقة الأثرياء (٦٧).

وحيث تؤدي ظاهرة قلة كمية الأمطار الساقطة وارتفاع معدلات تبخرها إلى حدوث ظاهرة التصحر التي تؤدي إلى تناقص إنتاجية الأراضي الزراعية ومن ثم هجرة السكان الأصليين أو تشردهم فراراً من الهلاك (٦٨)، فإننا لا نستبعد ـ في ظل فرض المناخ السائد في مكة وما حولها هذه الظاهرة على أراضيها، واجتياح موجات من الجفاف مكة، كما أشرنا ـ هجرة الكثير من أهل القرى والأماكن القريبة من مكة إليها، مما يزيد من أعداد السكان فيها، وفي الوقت نفسه يحدث تخلخل في تركيبة السكان القاطنين مكة آنذاك، ولعل في جلب بعض الفئات من المغاربة لإصلاح بعض الأراضي حول مكة وزراعتها خلال القرن السادس الهجري تأكيد على هجرة أهل هذه المناطق الأصليين عنها (٦٩).

٣ ـ أثر الأوضاع البيئية في التوزيع السكاني.

كما أثرت البيئة في حجم السكان وتركيبتهم في مكة ـ كما بيّنا، فإنها أثرت ـ أيضاً ـ في توزيعتهم على سطح الأرض فيها، حيث فرض وجود المسجد الحرام والرغبة في القرب منه وجود كثافة سكانية على جنبات المسجد وحوله، بل أن المباني السكنية كانت في وقت من الأوقات فيما بين الكعبة والمسعى، ومنها ما كان يفتح على المسجد مباشرة، كما انتشرت الأسواق والمدارس والأربطة بالقرب من المسجد الحرام (٧٠).

من جانب أخر فقد ((حددت طبوغرافية مكة المكرمة أشكالها العمرانية حيث اتخذت من الوديان التي تتخللها التلال الصخرية مستقراً طبيعياً لسكان المدينة، نظراً لسهولة البناء في المناطق المنخفضة التي تقرب أسطحها من المستوى الأفقي مما ولد على سكان المدينة ظروفاً مناخية قاسية، فإلى جانب تعرض الأحياء العمرانية للفيضانات والسيول أثناء انهمار الأمطار بعنف مفاجئ، فإن الحرارة المنبعثة من التشكيلات الصخرية الجرانيتية مضافاً إلى ذلك عدم وجود تيارات هوائية، كل ذلك يجعل معدلات الحرارة في مكة في أغلب أيام السنة مرتفعة، ويجعل الحياة والعمل من النشاطات المرهقة معظم أيام السنة)) (٧١).

وكانت أكثر دور المكيين في شمال وشمال شرق المسجد الحرام، وهو ما يسمى منطقة المعلاة، حيث شهدت هذه المنطقة توسعاً عمرانياً خلال الفترة التي نتحدث عنها (٧٢)، أما منطقة المسفلة فكانت أقل بيوتاً، ويبدو أن ذلك بسبب خطورة منطقة المسفلة عندما تجتاح السيول مكة. كما كانت بعض الشعاب المشهورة في مكة مكان وجد فيه أهل مكة مكاناً مناسباً للعمران (٧٣). وبهذا فإن البيئة الطبيعية لمكة قد فرضت على النسيج العمراني فيها الامتداد بشكل أفقي على مجرى وجنبات وادي إبراهيم وبعض الأودية والشعاب المغذية له. كما حددت هذه البيئة ـ سواء بطبيعتها أو ما تعانيه من تغيرات مناخية ـ نوعية المواد المستخدمة في بناء المنازل في مكة، حيث تركزت على الحجارة المأخوذة من جبالها (٧٤)، وطليت بمادة الجص لمقاومة الحرارة (٧٥).

أما بيئة مكة الدينية وقدسيتها فقد نتج عنها وجود أماكن وأحياء خاصة لبعض أهل الأمصار ممن رغبوا الاستقرار في مكة، فذكر المقدسي أن هناك مكاناً

مخصصاً للمصريين (٧٦)، كما أشار ناصر خسرو بعض الأماكن الخاصة في مكة لأهل خراسان وما وراء النهر والعراق (٧٧).

وفي العصر المملوكي، ونظراً لتكاثر السكان في مكة، فقد تكاثرت المنازل والدور حتى أصبحت متراكبة في الجبال المحيطة بالمسجد الحرام (٧٨). كما امتد العمران لأماكن بعيدة ـ نوعاً ما ـ عن الحرم، حيث انتشرت بعض الدور والأسواق في منطقة الزاهر وما حوله (٧٩).

ثانياً: أثر الأوضاع البيئية على حياة السكان في مكة.

رغم أن المصادر المتاحة لا تصرح ـ غالباً ـ بالآثار الاجتماعية التي تخلفها الأحوال البيئية المختلفة التي سادت مكة على حياة السكان ومعيشتهم بصورة مباشرة، إلا أننا نستطيع من خلال بعض الإشارات والنصوص وقراءة بعض الأحداث وأبعادها استنتاج عدد من التغيرات ـ السلبية أو الإيجابية ـ التي طرأت على جوانب متعددة من حياة السكان في مكة آنذاك، وسوف نبحث في الصفحات التالية أثر الأوضاع البيئية على حياة السكان ومعيشتهم في مكة إبان الفترة التاريخية المحددة.

١ ـ أثر الأوضاع البيئية على الجانب المعيشي.

أثرت الأحوال البيئية في تعرض سكان مكة لعدد من المجاعات والعطش ؛ بعد أن قَلَّت المواد الغذائية المهمة أو فقدت من الأسواق المكية، وكان القحط ـ الذي ينتج عن جفاف الطقس وانعدام الأمطار أو ندرتها سنوات عديدة، ويؤدي إلى المجاعات فضلاً عن الأوبئة المهلكة (٨٠) ـ من أبرز الكوارث والأزمات التي تعرض لها أهل مكة آنذاك، ومما أصاب سكان مكة من شدائد معيشية إبان الحقبة التاريخية التي نتحدث عنها ؛ ما حدث ـ مثلاً ـ في سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م حيث نال أهل مكة

الجهد وأضر بهم القحط بسبب توقف الأمطار الكافية عنهم في هذه السنة [٨١]. وفي سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م استمر الغلاء بمكة طوال السنة [٨٢]. كما عمّ مكة خلال السنوات من ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م حتى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م غلاء عظيم بسبب القحط الذي اشتد في مكة وما حولها حينذاك [٨٣]. وعلى أثر تأخر الأمطار سنين متوالية على مكة وما حولها وقع بمكة غلاء شديد سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م ارتفعت فيه أسعار المواد التموينية كثيراً [٨٤]. وتعرض أهل مكة لقحط أخر بسبب تأخر الأمطار عليهم خلال سنتي ٧٢١ ـ ٧٢٢هـ/ ١٣٢١ ـ ١٣٢٢م حيث ارتفعت أسعار بعض المواد التموينية الضرورية، وعدمت أخرى من الأسواق [٨٥]. وفي سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م تسبب عدم نزول المطر في ارتفاع الأسعار في مكة، ولكن الأزمة انحلت بسقوطه، يقول نجم الدين ابن فهد مبيناً ذلك في ذكر حوادث هذه السنة [٨٦]: ((وفيها غلت الأسعار حتى بلغ الإردب [٨٧]القمح ثلاثمائة درهم، والشعير مائتي درهم، والراوية الماء بأربعة مسعودية [٨٨]، ثم أغاث الله في أول يوم من المحرم بمطر استمر ثلاثة أيام، وانحل السعر وبيع إردب القمح بمائة وخمسين درهماً والراوية الماء بنصف وربع مسعودية)). وأعظم من ذلك ما جرى لأهل مكة من ضنك في المعيشة سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م [٨٩]، على إثر تأخر الأمطار عنهم، واستسقوا ولم يسقوا [٩٠]، يقول نجم الدين ابن فهد في أحداث هذه السنة [٩١]: ((فيها كان بمكة غلاء شديد جداً ؛ طلع السعر إلى ستمائة وثمانين الغرارة [٩٢]الحنطة، والذرة إلى أربعمائة، وربما تزيد على ذلك. وعُدم الحب حتى لم يوجد في مكة شئ منه، وأقام السوق نحو الشهر لم يوجد فيه حب ولا تمر إلا قليل من اللحم والخضر، وأكل الناس بعض لحم الحمير الميتة، وعز وجود الأقوات بها ؛ فهلك جماعة كثيرة جوعاً، ونزح أكثر أهلها عنها)).

كما اشتد الغلاء بمكة في سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م لتأخر الأمطار (٩٣).

من جانب أخر فإن تأخر الأمطار أو عدم نزولها في بعض السنوات على بعض الأماكن التي تزود مكة بالمؤن الغذائية كان سبباً لوقوع بعض الأزمات المعيشية في مكة، ومن أبرز هذه المواقع مدينة الطائف حيث تُعد مصدراً غذائياً مهماً للأسواق المكية بمنتجاته الغذائية (٩٤)، ومن الأمثلة على تأثير ما يجري في الطائف على مكة ما حدث ـ على سبيل المثال ـ سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م حيث غلت الأسعار في مكة بعد تأخر الأمطار عن الطائف ستة أشهر (٩٥). كما غلت الأسعار في الأسواق المكية سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، وكذلك سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣ عقب بعض الكوارث البيئية التي اجتاحت بعض مناطق اليمن التي تغذي الأسواق المكية بمنتجاتها الغذائية (٩٦). ونظراً لارتباط مكة الكبير بمصر إبان الفترة التي نتحدث عنها فإن أسواقها تتأثر كثيراً بأي ظروف تطرأ على الأحوال في مصر، وتؤثر على الزراعة فيها (٩٧).

كما يتزايد الغلاء وتتأزم معيشة السكان في مكة خلال مواسم الحج، سيما وأن أعداد الحجاج بدأت تتزايد في العصر المملوكي عن ذي قبل حتى وصلت في فترات من النصف الثاني من القرن التاسع الهجري إلى أكثر من ستمائة ألف حاج (٩٨). وربما يستمر الغلاء بعد موسم الحج لاستنزاف الحجاج المواد الغذائية الموجودة في مكة، فتخلو الأسواق بعد انتهاء الموسم، ويبقى المكيون يعانون من ضنك العيش وشدة الجوع ؛ كما حصل ـ على سبيل المثال ـ خلال سنتي ٧٤٧ ـ ٧٤٨هـ/ ١٣٧٢ ـ ١٣٧٣م حيث اشتد الغلاء في الموسم، واستمر بعد ذلك عدة أشهر (٩٩). وكذلك في سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، والتي يوضحها نجم الدين ابن فهد بقوله (١٠٠): ((فيها غلت الأسعار بمكة، فلما قدمت الرجبية انحلت قليلاً حتى

بيعت الويبة (١٠١)الدقيق بعشرين درهماً، والويبة الشعير من ثلاثين إلى عشرين درهماً، مع غلاء كل ما يؤكل. فلما قدم الحاج في الموسم ارتفعت الأسعار، وبلغت الويبة الدقيق إلى خمسين درهماً، والويبة الشعير إلى أربعين درهماً)). كما حصل في مكة غلاء فاحش في الأسعار بسبب قلة الغيث فيها خلال موسم حج سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م (١٠٢).

وكما عانى أهل مكة من الجوع فقد عانوا ـ أيضاً ـ من العطش، حيث تعاقبت على أهل مكة الكثير من الأزمات والمشكلات من هذا النوع، وتزودنا المصادر المتاحة بمعلومات متعددة عن تعرض السكان في مكة لقلة المياه، أو ندرتها، فضلاً عن ارتفاع أسعارها في كثير من السنوات، مبينة أن السبب الرئيس في هذه المعاناة ـ في الغالب ـ قلة الأمطار وغور الآبار والعيون، فضلاً عن تعاقب الزمن بمؤثراته البيئية المختلفة على بعض المنشآت المائية الموجودة في مكة (١٠٣). ولا شك أن لهذه الأزمات المتعددة، والتي تعاود أهل مكة بين الحين والأخر، أثر كبير في حياتهم، فقد أقلقت ـ بلا ريب ـ مضاجعهم، واستنفذ غلاء المياه الكثير من إمكاناتهم المادية، كما أودى العطش ـ كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك ـ بحياة الكثيرين منهم. وتزيد هذه المشكلات على المكيين في مواسم الحج حيث يتزايد الطلب على الماء، ومن ذلك ما حصل ـ على سبيل المثال ـ عندما تزايدت أعداد الحجاج سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م (١٠٤). وكذلك سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م حيث تعرض أهل مكة لعطش شديد أثناء موسم الحج، ثم انحلت الأزمة بنزول المطر، يقول نجم الدين ابن فهد مبيناً ذلك (١٠٥): ((وغلت المياه في شعبان ورمضان، ووصل حاج اليمن مع الفقية ابن عجيل (١٠٦) في خلق كثير ؛ فبلغت الراوية أربعة دنانير، واستسقى الناس

من عرفة والقصر (١٠٧)، ثم رحم الله الناس بالمطر والسيول وامتلأت بركة السلم، وبركة بسوق الليل)). كما قلّ الماء في مكة خلال موسم حج سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م حتى بيعت الراوية بدينار أشرفي (١٠٨).

إضافة إلى ذلك فقد كان العطش وقلة الماء سبباً في تراجع الحجاج عن القدوم إلى مكة (١٠٩). ومنهم من يعاني هذه الشدة في الطريق، سواء كان قادماً إلى مكة، أو عائداً منها (١١٠).

من جانب أخر فقد تسبب تكاثر الأمطار في رغد عيش أهل مكة، واستقرار الأوضاع فيها، فضلاً عن رخص الأسعار، حيث ساعد نزولها على زراعة الكثير من المحاصيل في الأماكن المشتهرة بذلك ؛ سواء في القرى المناطق القريبة من مكة، أو في مدينة الطائف، كما وفّر نزول ـ أيضاً ـ الأمطار المياه اللازمة. يقول نجم الدين ابن فهد في حوادث سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م ـ مثلاً ـ عن أثر الأمطار في رخص الأسعار (١١١): ((وفيها سال وادي وج أربعين مرة،... ورخص الشعير حتى لم يقم الحمل بكرائه إلى مكة)). ويقول نجم الدين ابن فهد ـ أيضاً ـ في أحداث سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م مبيناً كثرة المزروعات في هذه السنة (١١٢): ((وفيها زرع من الأراضي ما لم يعهد)). وفي سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م رخصت المواد الغذائية خصوصاً الذرة التي بلغت آنذاك أقل سعر لها رآه الفاسي (١١٣)، وكان السبب الرئيس لهذا الرخص نزول الأمطار (١١٤). كما كان للسيول والأمطار التي جاءت مكة سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م أثر كبير في رخص أسعار المواد الغذائية فيها (١١٥). وقد رأينا ـ أيضاً ـ من خلال بعض النصوص التي أوردناها في حديثنا عن المجاعات والعطش الذي تعرض له أهل مكة في بعض السنوات مدى تأثير نزول الأمطار في حل الكثير

من الأزمات المشكلات المعيشية التي وقعت على أهل مكة.

٢ ـ أثر الأوضاع البيئية على الجانب الصحي:

تُعد البيئة بأوضاعها المتباينة ومتغيراتها المختلفة عاملاً مهماً من العوامل المؤثرة ـ سلباً أو إيجاباً ـ في صحة الإنسان، ولقد عانى المكيون كثيراً من بعض الأوضاع والمتغيرات البيئية التي سادت خلال الحقبة التاريخية التي نتحدث عنها، سيما في ظل تأخر إقامة بيمارستان فيها (١١٦)، فضلاً عن ما نلحظه ـ من خلال تصفح كتب التراجم المكية ـ من قلة المهتمين بمجال الطب في مكة حينذاك.

وكان للكوارث الطبيعية المتمثلة في الجفاف والفيضانات والأعاصير والعواصف ـ بصفة عامة ـ أثر في انتشار الأوبئة والأمراض في أوساط المجتمع المكي، وقد عانى سكان مكة بسبب ذلك من بعض الأزمات الصحية، يقول نجم الدين ابن فهد ـ مثلاً ـ في حوادث سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م (١١٧): ((وفيها هبت ريح بمكة من قبل اليمن أظلم عقيبها الحرم الشريف، وفشت الأمراض في الناس حتى لم يكن أحد إلا وبه وعك، إلا أنه كان سليماً ؛ يحصل البرء منه بعد أسبوع)). وقد وقفنا في حديثنا السابق عن أثر البيئة في حجم السكان بمكة على مدى انتشار الأمراض والأوبئة في مكة، وكيف كانت تفتك بسكانها خلال الحقبة التاريخية المعنية بالدراسة.

وكان للأزمات المعيشية المتكررة التي تعرض لها أهل مكة بسبب قلة المواد الغذائية الضرورية أو انقطاعها من الأسواق في كثير من الأوقات ـ كما رأينا من خلال الحديث السابق ـ أثر لا يغفل في الصحة العامة للسكان، حيث يلجأ الناس إلى أكل بعض الحبوب التي لا تستساغ في الأيام العادية لغرابتها وعدم جدواها الغذائية، مثلما حدث في سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م عندما أكل الناس سائر الحبوب حتى القطاني وحب الثمام بعد أن عملوها خبزاً (١١٨). إضافة إلى ذلك فقد كانت بعض المنتجات

الغذائية في مكة سبباً في إلحاق المرض بسكانها (١١٩).

كما أن اضطرار سكان مكة في بعض السنوات - وفي ظل المجاعات المتكررة التي تنتج في الغالب عن الجفاف والقحط الذي يعم مكة - لأكل الهزيل من الدواب فضلاً عن الميتة منها أثر في سوء التغذية وتفشي بعض الأمراض بين الناس ؛ ومن ذلك ما حدث - مثلاً - سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣ عندما أكل الناس في مكة الدم والجلود والعظام (١٢٠)، وما حدث في سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م عندما عدمت بعض الأقوات بمكة فاضطر الناس لأكل لحوم بعض المواشي الميتة (١٢١)، والأشد من ذلك والأنكى ما حدث في مجاعة سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م، يقول نجم الدين ابن فهد: ((وعدمت الأقوات، وأكلت القطط والكلاب حتى فقدت، فأكل بعض الناس الآدميين، وكثر الخوف منهم حتى امتنع الناس من البروز إلى ظاهر مكة ؛ خشية أن يؤكلوا، وهلك الفقراء، وافتقر الأغنياء)). والمعروف أن الميتة قد حرمت في الشريعة الإسلامية لأنها خبائث وحاملات للأوبئة والأمراض التي تهلك الإنسان (١٢٢).

وحيث أن الماء من العناصر الأساسية التي تكون جسم الإنسان، كما يساعد على مضغ وبلع وهضم وامتصاص المواد الغذائية، ويعمل على تلطيف حرارة الجسم، وهو ضروري جداً للنظافة العامة (١٢٣)، فإن نقصه أو غلاء أسعاره في مكة في بعض السنوات بسبب قلة الأمطار أو غور الآبار - كما اتضح سابقاً - قد أثر في صحة الناس في مكة، وعرضهم للكثير من المشكلات الصحية المختلفة (١٢٤).

وفي المقابل فإن لاجتياح السيول مكة وحملها للكثير من القاذورات والزبل الموجودة في طريقها، كما حدث - مثلاً - سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م (١٢٥)، وسنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م (١٢٦)، وسنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م (١٢٧)، وكذلك سنة

٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م (١٢٨)، أثر في تلوث(١٢٩) المياه، ومن ثم إلحاق الكثير من الأضرار الصحية بالسكان وانتشار العديد من الأوبئة والأمراض، سيما وأن هذه السيول تستغل لملأ العديد من البرك والأماكن المخصصة لتجميع المياه لغرض الاستفادة منها للشرب.

وفي هذا الصدد فإننا لا نستبعد ـ أيضاً ـ انتشار بعض الأوبئة والأمراض وإلحاق بعض التلوث الصحي بين سكان مكة من خلال دخول السيول وجرفها وتخريبها للمقابر (١٣٠)، كما حدث ـ مثلاً ـ في سيول سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م عندما خرّبت السيول العظيمة التي جاءت مكة آنذاك الكثير من القبور الموجودة في مقبرة المعلاة (١٣١). أو من خلال تعفن جثث القتلى الذين يذهبون ضحية للكوارث البيئية المختلفة، بعد أن تسقط عليهم الدور، أو تجرفهم السيول، أو يهلكوا بسبب الأمراض والقحط والمجاعات، مما رأينا من خلال حديثنا السابق الكثير من الأمثلة عليه.

بيّد أن قلة الأمطار وتكاثر أوقات القحط فضلاً عن السيول الجارفة التي تعرضت لها مكة في بعض الأحيان ـ كما أسلفنا ـ قد أدت في مجملها ـ بلا شك ـ إلى تفاقم بعض الأمراض وتزايد حالات الوفاة بين المكيين، وذلك لحدوث نقص أو انقطاع بعض الأدوية والعقاقير الطبية التي تعتمد على النباتات في تركيبها. ولعل ما يؤكد أهمية هذه المستحضرات الطبية، وكثرة الحاجة إليها، وجود أسواق خاصة في مكة (١٣٢).

وكما هو معروف أيضاً فإن الجفاف والقحط ـ والذي عانت منهما مكة كثيراً، كما رأينا ـ يؤديان إلى انتشار الأمراض والأوبئة الناتجة عن سوء التغذية، فضلاً عن موت أعداد كبيرة من الأطفال الذين لا يتحملون تلك الظروف القاسية، في ظل

عدم توفر الغذاء المناسب والرعاية اللازمة لهم (١٣٣).

وتؤثر الأجواء المناخية في مكة متمثلة في ارتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف على صحة الإنسان فيها، فيكثر حدوث مرض ضربات الشمس والإرهاق الحراري لمن يتعرض طويلاً لأشعة الشمس، وتزداد في مواسم الحج هذه الظاهرة بروزاً، سيما بين الحجاج القادمين من مناطق باردة. كما تؤدي إلى حدوث وفيات فيما بينهم (١٣٤).

ومما أثر على صحة سكان مكة ـ سيما في مواسم تكاثر الناس فيها وانتشار بعض الروائح التي تلوث الأجواء ـ قلة الأشجار والمزروعات التي فرضتها طبيعة تضاريس مكة، فكما هو معروف فإن تواجد الأشجار يساعد على تعديل مكونات الهواء بما تعطيه من كميات كبيرة من الأكسجين، إضافة لما تقوم به الأوراق الخضراء من امتصاص ثاني أكسيد الكربون، فضلا عن أثر الأشجار في تثبيت حبيبات التربة وتماسكها وحمايتها من التعرية وعدم إثارة الأتربة (١٣٥).

وقد فرضت البيئة في مكة ـ بطبيعتها القاسية وقلة مواردها ـ على أجسام سكانها الدقة والهزال، فضلاً عن النحافة، وميل أجسامهم إلى السمرة (١٣٦).

وكان في مكة خطر يهدد حياة السكان وينغص عيشهم وهو كثرة انتشار الذباب فيها (١٣٧)، ولا شك أن أهل مكة والقادمين إليها قد عانوا كثيراً من هذا الأمر، فالمعروف أن الذباب يتسبب في نقل الكثير من الأمراض الخطيرة للإنسان، كما أن البيئة التي تكثر فيها الحشرات تنتشر فيها الأمراض المتوطنة والطفيلية والوبائية (١٣٨). ورغم ذلك فإن طبيعة مكة الجبلية ونزول الماء عنها قد ساعد على الحد من خطورة الحشرات فيها في ظل عدم وجود تجمعات للماء ـ كالمستنقعات مثلاً ـ والتي

تسبب الكثير من العفن والملوثات والأمراض والأوبئة عند نزول الأمطار.

الجدير بالذكر أن الله سبحانه وتعالى قد حفظ المكيين من مرض شائع في بعض الأمصار وهو مرض الجذام، وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام، فقد جاء في تفسير عبد الله بن عباس لقوله تعالى: ((وآمنهم من خوف)) { قريش ٤ } ' أنه خوف الجذام (١٣٩). وقد أكّد المقدسي ذلك عندما أشار إلى أنه لم ير مجذوماً بمكة (١٤٠).

من جانب صحي أخر فقد كانت الكوارث والمخاطر البيئية التي تحل بمكة سبباً في معاناة أهلها للعديد من المشكلات والضغوط النفسية المتمثلة بالخوف والقلق على حياتهم، فضلاً عن انزعاجهم الناتج عن عدم تمكنهم من القيام ببعض العبادات والنسك، يقول الفاسي ـ مثلاً ـ عن آثار سيول غشت مكة سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م (١٤١): ((لم يكن ليلة النصف من شعبان بالحرم أحد إلا أن الحرم بقي كالبحر يموج منبره فيه، وما سمعت تلك الليلة مؤذناً، لأنه بقي الناس من خوف الهدم والغرق في أمر عظيم، حتى خشي إنه ينسى كثير من الناس الفرض، فكيف بصلاة ليلة النصف من شعبان المكرمة، وتوهمت أنه طردُ لأهل مكة عن بيته لأنهم كانوا قد استعدوا على العادة لصلاة نصف شعبان، وأخرجوا من صلاة الجمعة فأتمها الإمام، ولم ير تلك الليلة طائف إلا ما سمع في المسجد برجل يطوف بالعوم، فتعجب الناس من قوته وجسارته)). وتحدث البروق والرعود الكثير من القلق والخوف والإزعاج لقاطني مكة لما يترتب عليها صواعق مهلكة أو سيول مدمرة (١٤٢). أما الرياح القوية فكانت سبباً لمعاناة الناس وتضايقهم نفسياً بما تسببه من عري للكعبة المشرفة في بعض الأحيان، كما حدث ـ على سبيل المثال ـ سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م (١٤٣). وقد رأينا كيف انتاب الخوف والقلق أهل مكة عقب

المجاعة التي حصلت لهم في سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م فكانوا لا يخرجون منها خوفاً أن يؤكلوا (١٤٤).

٣ ـ أثر الأوضاع البيئية على الجانب الأمني:

كان تأثير البيئة في الجانب الأمني واضحاً من خلال وضعين أجبرا مكة أن تقاسي في بعض الفترات التاريخية الكثير من المشكلات الأمنية التي نغصت معيشة القاطنين فيها آنذاك، وقد تمثل الوضع الأول في بيئة مكة الدينية ؛ فبقدر ما أعطتها هذه البيئة مكانة سامقة بين أصقاع المعمورة كأقدس البقاع وأطهرها، إلا أنها تسببت في تردي الوضع الأمني وجلب القلق والخوف للسكان، بعد أن شهدت مكة الكثير من المنافسات السياسية والنزاعات العسكرية بين عدد من القوى الإسلامية التي حاولت أن تجعل من مكانة مكة الدينية منطلقاً لإكساب حكمها الشرعية في نظر المسلمين. والمقلب لصفحات التاريخ يقف على الكثير المحاولات التي سعت في أن تجعل من مكة هدفاً لثورتها أو منطلقاً لإثبات أحقيتها وجدارتها في تولي خلافة المسلمين، فضلاً عن ما يراه خلال هذه الصفحات ـ أيضاً ـ من الصراعات الدامية والمنافسات الحامية التي قامت بين عدد من القوى الإسلامية على مكة، كما يدرك من مدى ما جلبته هذه التصرفات المتنوعة من خلل أمني أقلق السكان وجلب لهم الويلات والنقم والشدائد المختلفة، وفي تتبع الأحداث التاريخية والصراعات العسكرية التي مرت على مكة بصفة عامة ؛ سواء ما شهدته من الثورات العلوية ضد الخلافة العباسية، أو التنافس العباسي العبيدي على مكة، إضافة للنزاع بين الرسوليين والأيوبيين ثم مع المماليك، فضلاً عن محاولة المغول بسط سلطتهم على مكة على حساب المماليك، تبيان لحرص هذه السلطات على ضم مكة لحكمها، وإيضاح لمدى ما عاناه المكيون من مشكلات أمنية حينذاك.

أما الوضع البيئي الأخر الذي أخل بالوضع الأمني لسكان مكة فكان في ضعف مواردها المعيشية التي فرضتها طبيعة البلد، حيث أجبر هذا الوضع الاقتصادي السلطات الموجودة في مكة ـ خصوصاً بعد استقلال الأشراف بحكمها خلال القرن الرابع الهجري ـ على الارتماء في أحضان قوى أخرى تستطيع أن توفر لهم القدر الكافي من الموارد المعيشية والمالية مقابل الدعوة لهم على منابر مكة، وقد دفع ذلك السلطات الإسلامية ـ سواء كانت في العراق أو مصر أو اليمن ـ إلى التنافس في استقطاب ودّ الأشراف وجذبهم من خلال بذل الأموال الطائلة، كما أدى ذلك إلى دخولهم في صراعات متنوعة، كانت سبباً في تخلخل الأمن، وبالتالي إرباك حياة سكان مكة وتنغيص معيشتهم.

من جانب أخر فإن تأثر الأمن الداخلي الناتج عن الصراعات العسكرية المذكورة سيدفع ـ دون ريب ـ إلى مزيد من المشكلات الأمنية للقاطنين في مكة والقادمين إليها من خلال استغلال ضعاف النفوس من لصوص وغيرهم عدم الاستقرار لممارسة السلب والنهب للسكان. فضلاً عن ذلك فإن بعض الضوائق المعيشية الناتجة عن بعض الأوضاع البيئية قد أحدثت تخلخلاً أمنياً في مكة عانى منه ـ بلا شك ـ سكانها، مثلما حدث عندما اضطر الجيش المملوكي المرابط في مكة لمغادرتها إلى مصر سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م بسبب المجاعة التي حصلت لهم لتأخر الأمطار حينذاك (١٤٥).

من جهة أخرى فقد كان للوضع الاقتصادي المتمثل بفقر مكة أثر على أمن السكان، خصوصاً أولئك الموسرين منهم، حيث كانت أموال هؤلاء التجار صيداً سهلاً لبعض أمراء مكة ممن لا يتورعون في بعض الأحيان من نهب ممتلكات أهل مكة والقادمين إليها من التجار والمجاورين وغيرهم (١٤٦). بل كان بعض هؤلاء الأمراء

يرى أن أموال هؤلاء حق موروث له [١٤٧]. كما كانت سياسة فرض المكوس المتنوعة من قِبل حكام مكة ـ والتي فرضتها الحاجة الماسة لمصادر مادية تعوض فقر المنطقة وقلة مواردها الاقتصادية [١٤٨]ـ سبباً في توتر الأمن وزيادة الضغوط على سكان مكة والواردين إليها من الأقطار الأخرى [١٤٩].

٤ ـ أثر الأوضاع البيئية على حياة السكان الاقتصادية:

أثرت الأوضاع المتباينة للبيئية في مكة على بعض الجوانب الاقتصادية المرتبطة بحياة السكان، فكان للطبيعة الدينية والجغرافية التي عاشتها مكة ـ والتي سبقت الإشارة إليها ـ دور في تحديد مناشط السكان، فتركزت أعمالهم ـ في الغالب ـ على ممارسة التجارة، بعد أن ساعدهم موقع مكة الجغرافي وتقاطر الحجاج والزوار إليها كل عام على ممارسة هذا النشاط الاقتصادي المهم، في حين قلّ عدد المشتغلين بالزراعة لطبيعة المنطقة الصحراوية، وندرة المياه، وقلت الأماكن الصالحة للزراعة فيها.

كما حددت ظروف مكة البيئية، وطبيعتها الدينية تحديد التركيز على بعض المهن، ومن ذلك ما نلحظه من كثرة المشتغلين بأعمال الحلاقة [١٥٠]، وكذلك العمل في دباغة الجلود التي اشتهرت كثيراً في مكة [١٥١]، ويبدو أن لما يذبح في موسم الحج من هدي قد شجع على ذلك.

وكان الجدب والحرّ الذي عمّ مكة سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م [١٥٢]، وسنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م وأهلك فيها الكثير من الجمال في مكة على إثر وباء انتشر فيها [١٥٣]، وكذلك الأمراض التي حدثت في سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م وقضت على المواشي فيها [١٥٤]، والسيل الذي جاء مكة سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م وجرف عدداً من

الحيوانات (١٥٥)، قد أدت ـ مثلاً ـ إلى الإخلال بمصدر اقتصادي مهم في حياة السكان، والمتمثل في الثروة الحيوانية ؛ سواء كان ذلك بتأثيرها على زيادة أسعار ما يباع منها، أو بقلة لحومها في الأسواق أحياناً، وفقدانها في أحيان أخرى، فضلاً عن ارتفاع أجار النقل الذي تقوم به في العادة بعض هذه الدواب، ومن ثمّ غلاء ما تنقله من مواد ومؤن.

كما تعرض سكان مكة لخسائر مادية متنوعة على إثر بعض الكوارث البيئية التي تجتاح المنطقة في بعض السنوات، سيما منها الأمطار المتواصلة أو السيول الجارفة التي كانت سبباً في فقدان الكثير من الممتلكات والمدخرات المختلفة الخاصة بالقاطنين في مكة، سواء كان ذلك بفقدانهم الدور والمنازل التي يأوون إليها، أو خسارتهم لما تحتويه هذه الأماكن من حاجياتهم ومدخراتهم المتنوعة التي تذهب مع السيول أو تفقد تحت الأنقاض، فضلاً عن خراب بعض البساتين والمزروعات الخاصة بهم (١٥٦)، ومن ذلك ما حصل ـ على سبيل المثال ـ في سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م عندما مطرت مكة سبعة أيام متتالية، مما أدى إلى سقوط الكثير من الدور وتضرر الناس على أثر ذلك (١٥٧)، وما حدث سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م عندما غشا مكة سيل عظيم نتج عنه سقوط الكثير من الدور على سكانها (١٥٨)، وكذلك السيل الذي جاء مكة سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م وخرّب الكثير من البساتين فيها (١٥٩). كما ألحق السيل الذي اجتاح مكة سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م بسكانها الكثير من الخسائر حيث خرب أكثر من ثمانين بيتاً في مكة (١٦٠). بل أن السيل الذي جاء مكة سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م قد هدم حوالي ألف منزل فيها (١٦١). ومثله السيل الذي جاء مكة أيضاً سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م (١٦٢). أما السيل الذي حصل في مكة سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م فقد دخل عدداً من الدور في سوق الليل وأتلف أشياء كثيرة فيها (١٦٣). ولا شك أن معاناة سكان مكة لن تقتصر من جراء الكوارث السابقة على هدم المنازل وخراب

الدور ـ كما رأينا، بل أن ذلك سيمتد إلى جوانب اقتصادية مهمة في حياتهم، ومن أبرزها ارتفاع أسعار العقارات بيعاً أو تأجيراً، إضافة إلى ارتفاع أسعار مواد البناء والأيدي العاملة في هذا المجال.

ولا غرو أن الأزمات والكوارث البيئية المختلفة التي عانى منها سكان مكة خلال الفترة التاريخية التي نتحدث عنها ـ مما أشرنا إليها خلال الصفحات السابقة ـ قد امتدت آثارها إلى مناحي اقتصادية أخرى ذات علاقة بحياة السكان ومعيشتهم، فالمعروف ـ وإن لم تصرح المصادر المتاحة ـ أن هذه المشكلات المختلفة ستؤدي إلى التلاعب بالأسعار وظهور الغش والتطفيف، وكذلك استفادة بعض الفئات ونمو ثرواتهم، إضافة إلى تأثر بعض أسعار الممتلكات كالعقارات والسلع غير الغذائية خصوصاً عندما تزداد الحاجة للتموين الغذائي، فضلاً عن ذلك فإن زيادة الأسعار وارتفاعها في كثير من الأوقات ـ على إثر بعض الأزمات والمشكلات البيئية ـ يجبر الناس على الاكتفاء بالضروريات من مواد المعيشة، مما يؤثر على الكثير من الصناعات التي يعتمد تسويقها على توفر الرفاهية المعيشية للناس.

ولا نغفل ـ ونحن نتحدث عن أثر البيئة على حياة السكان الاقتصادية في مكة ـ أثر التدهور السكاني والاختلال الاجتماعي ـ مما أشرنا إليه أثناء حديثنا عن البنية السكانية ـ في تضاؤل الإنتاج الزراعي والصناعي في المنطقة التي تحل بها مثل هذه الأزمات (١٦٤). فضلاً عن أثر القحط، بما يصاحبه من مجاعات وأمراض وأوبئة، على اقتصاد المناطق التي تتعرض لذلك (١٦٥).

ومما تجدر الإشارة إليه أن أهل مكة قد استفادوا من الوضع الديني لمكة أثناء مواسم الحج والعمرة وذلك بتأجير بيوتهم القريبة من المسجد الحرام على الحجاج ممن يفدون لمكة قبل بدء مناسك الحج، يقول المحجوب حول هذا الجانب بعد أن ذكر

الجبال المحيطة بالحرم (١٦٦): ((والدور والمساكن بجميع هذه الجبال متراكبة بعضها فوق بعض... وفي هذه الجبال ومساكنها يتسع أهل مكة في مواسم الحج، لأنهم يكرون منازل بسيطة في وادي مكة للحجاج على كثرتهم ثم يصعدون هم إلى هذه الجبال المذكورة)).

من جانب أخر فإن الفقر المادي لمكة والذي أجبر أهلها للخضوع لقوى من خارج المنطقة قد تسبب في غلاء الأسعار واحتكار بعض السلع، ومثال ذلك ما حدث في مكة سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م عندما قام بعض التجار وأصحاب المحلات التجارية من المصريين ـ والذين تزايد عددهم حينها في مكة ـ برفع الأسعار واحتكار بعض السلع مستغلين قوة النفوذ المملوكي في مكة حينذاك (١٦٧).

٥ ـ أثر الأوضاع البيئية على عادات السكان وتقاليدهم:

لقد فرضت بيئة مكة وطبيعتها الجغرافية على سكانها الكثير من العادات والتقاليد، كما أسهمت البيئة الدينية بدور فاعل في إحداث العديد من التغيرات والمستجدات في هذا الجانب ؛ سواء من خلال القادمين إلى مكة لأداء الشعائر الدينية، أو أولئك الراغبين في الاستقرار الدائم مجاورين لهذه البقعة المباركة. ومن هذا المنطلق فإننا سوف نتحدث عن بعض العادات والتقاليد التي فرضتها البيئة، أو تلك التغيرات التي طرأت على هذا الجانب بتأثير من أوضاع البيئة المختلفة.

فعندما ننظر إلى طبيعة مكة الجغرافية بتضاريسها الجبلية الوعرة نرى أنها فرضت على أخلاق المكيين الشدة والجفاء، حيث قال المقدسي ـ مؤكداً أن الإنسان صنيع بيئته، كما يقال ـ (١٦٨): (وفي أخلاق المكيين جفاء).

كما أجبرت الظروف المناخية الحارة في مكة أهلها على الاصطياف في

الطائف للتمتع بأجوائها الباردة، فكانت تلك عادة متبعة خصوصاً عند الطبقة الغنية، ولا شك أن هذه العادة قد عمقت من الصلات بين المدينتين، وزادت من الروابط الأسرية فيما بينهما (١٦٩).

ونظراً لعدم تباعد درجات الحرارة كثيراً في مكة خلال فصول السنة الأربعة فإن نوعية لباس المكيين قد أصبحت ـ في الغالب ـ ثابتة لا تتغير خلال هذه الفصول (١٧٠)، حيث أعتاد أكثرهم لبس البياض (١٧١). من جانب أخر فقد فرضت الطبيعة على أهل مكة ضرورة لبس النعال كعادة معروفة (١٧٢).

وقد جعل فقر مكة من أهلها أناس محبين للبذل والعطاء، فكان من عادتهم إكرام الفقراء والمنقطعين للمجاورة في مكة وإيثارهم، وحسن الجوار للغرباء والتلطف والرفق بهم (١٧٣). كما اعتاد أهل مكة إعداد أطعمة معينة خاصة بهم يخرجون بها معهم إلى عرفات (١٧٤). إضافة إلى ذلك فقد اعتادوا ـ كما أشرنا في الجانب الاقتصادي ـ تأجير بيوتهم على الحجاج في المواسم، بعد أن يخرجوا منها ليسكنوا في الجبال المحيطة بالمسجد الحرام حتى انتهاء الموسم (١٧٥).

وربما تؤدي الحاجة الشديدة إلى المال في ظل فقر مكة وحاجة أهلها لموارد مادية إلى ظهور بعض البدع التي تنتشر بين الناس بسبب الجهل (١٧٦)، حيث ظهرت في بداية القرن السابع الهجري بعض البدع، ومنها ؛ الكوة التي استحدثت داخل الكعبة وأطلقوا عليها ((العروة الوثقى))، وكذلك المسمار الذي وضع داخل البيت الذي سمي ((سرّة الدنيا)) يضع الشخص عليه سرته بعد دفع مبلغ من المال (١٧٧).

وحيث تنتشر بين المكيين بعض العادات والاحتفالات التي يتم خلالها تقديم العديد من المأكولات والمشروبات المختلفة (١٧٨)، فإننا لا نستبعد تأثر هذه العادات والتقاليد التي اعتادوا عليها أو توقفها بسبب بعض الظروف البيئية التي تعرض لها مكة، سواء كانت تلك كوارث مؤثرة في نمط الحياة المعتادة، أو نقص في المواد الغذائية التي تحتاجها هذه الاحتفالات بعد الأزمات المعيشية المترتبة على الجفاف والقحط.

وقد أثر موسم الحج في وقت الزواج في مكة، فكانوا لا يقيمون حفل الزواج حتى يرحل الحاج، يقول ابن المجاور (١٧٩): ((وفي العشر من ذي الحجة يخطب زيد بنت عمرو، وفي العشر من المحرم يدخل كل واحد منهم على عرسه بالنظرة والتظهير. قلنا: ولِمَ ذاك ؟ قالوا: لأن كلاً منا يعيش مع الحاج في كل فن من الفنون من حرام وحلال (١٨٠)، فإذا رحل الحاج دار الخطب والنكاح والأفراح والأعراس بين الناس)).

وكان للصلات المتعددة للمكيين مع عدد من الأمصار الإسلامية، والتي فرضتها قدسية مكة، وحاجتها لخيرات هذه البلاد في ظل فقرها، أثر ـ بلا شك ـ في دخول بعض العادات والتقاليد سواء منها الاحتفالات الخاصة والعامة، أو غير ذلك من عادات المأكل والمشرب (١٨١). بل أن الأمر وصل إلى حد التأثر بالأسماء، حيث نرى أن حاكم مكة الشريف محمد بن بركات (٨٥٩ ـ ٩٠٣هـ/ ١٤٥٤ ـ ١٤٩٧م) يسمي أحد أبنائه مثل اسم أحد سلاطين المماليك وهو قايتباي (١٨٢)، رغم أن هذا الاسم ليس من الأسماء العربية.

من جانب أخر فقد فرضت طبيعة مكة الدينية وقدسيتها نزول ومجاورة الكثير من أبناء الأمصار الإسلامية، ولا شك أن هؤلاء سوف يختلطون بالمجتمع

المكي؛ إما من خلال التعاملات العديدة، أو التزاوج فيما بينهم (١٨٣)، مما سيترك الكثير من التأثير على عادات أهل مكة وتقاليدهم، فضلاً عن أشكال أجسامهم، يقول ابن المجاور عن أوصاف أهل مكة (١٨٤): ((وهم رجال سمر لأن جلة مناكحهم الجوار السود من الحبش والنوبة)).

الجدير بالذكر أن وجود الكعبة في مكة بقدسيتها ومكانتها في النفوس، فضلاً عن شكل بنائها قد أثر في نمط البناء في مكة، فكان أهلها لا يرفعون البناء فوق مستوى بناء الكعبة (١٨٥)، ولا يبنون مساكنهم على شكل مربع احتراماً لها، كما حرصوا على تشييد مساكنهم قرب الكعبة (١٨٦).

٦ ـ أثر الأوضاع البيئية على جوانب أخرى من حياة السكان:

وهناك جوانب أخرى مرتبطة بحياة السكان في مكة أثّرت عليها البيئة بأوضاعها المختلفة وأحوالها المتباينة ـ ولكن بصورة أقل ـ إبان الفترة التاريخية التي نتحدث عنها، ومن ذلك ما تسببه التغيرات البيئية من تدمير المسالك والطرق والمنشآت العامة كالمساجد ومرافق الخدمات (١٨٧)، وكذلك تعطيل البرك والسقايات ومجاري المياه وغور الآبار والعيون (١٨٨)، فضلاً عن تأثر الحياة الثقافية بالكوارث والمشاكل البيئية ؛ إما بفقدان بعض العلماء وطلاب العلم في مكة (١٨٩)، أو هجرتهم عنها (١٩٠)، أو إحجام من هم خارجها عن المجيء بسبب بعض الكوارث (١٩١)، فضلاً عن تدمير وإضاعة الكتب التي يستفيد منها أهل مكة عقب بعض السيول الجارفة (١٩٢).

الخاتمـــة:

إن هذه الدراسة التي حاولت أن تستقصي أثر الأوضـاع البيئيـة علـى الحيـاة الاجتماعية في مكة منذ بداية القرن السادس حتى نهايـة القـرن التاسـع الهجـري قـد كشفت لنا ـ بحمد الله ـ عن كثير من النتائج التي سوف نوجزها في السطور التالية.

ـ أن المؤثرات البيئية في مكة قد تشكلت في واقع بيئي جغرافي، إضافة لـبعض الظواهر الكونية المتنوعة والأشكال والتأثيرات المناخية المتعددة والتقلبات المختلفة.

ـ أن مكـة تعرضـت خـلال الحقبـة التاريخيـة الـتي تحـدثنا عنهـا للكـثير مـن الكوارث والمشكلات والأزمات البيئية التي كان تأثيرها واضحاً في الحياة الاجتماعيـة بجوانبها المختلفة.

ـ أثّرت طبيعة مكة الجغرافية، فضلاً عن بعـض الكـوارث والأزمـات البيئيـة إبان الفترة التاريخية التي تناولتها الدراسة في قلة عـدد مـن سـكانها، سـيما علـى أثـر بعض الكوارث التي تقضي على عدد كبير من سكان مكة ؛ كالسيول الجارفة والقحط والمجاعات والأوبئة والأمراض والـصواعق وغيرهـا. كمـا أدى الوضـع الـديني لمكـة، إضـافة للاسـتقرار ورغـد العـيش فيهـا في فـترات تاريخيـة أخـرى ـ وبـسبب بعـض التأثيرات البيئية أيضاً ـ إلى استقطاب مكة لعدد من السكان.

ـ كما كان للأوضاع البيئية أثر في تخلخل التركيبـة الـسكانية في مكـة ؛ فكـان تكالب الفقر على البلد مع قلة الأقوات القادمة إليه في بعض الأوقـات دافعـاً لهجـرة الكثير من السكان آنذاك، فضلاً عن كونها مانعاً لعدد أخر من القدوم إلى مكة.

ـ أن قدسية المكان ـ كواقـع بيئـي لمكـة ـ قـد حـتم وجـود بعـض الطبقـات الاجتماعية ؛ كالمجـاورين والنـزلاء، وأصـحاب الوظـائف والمهـام الدينيـة والإداريـة

والتعليمية والمهنية، وعدد من التجار الذين فضلوا البقاء في مكة. وقد تزايد عدد هـذه الفئات بشكل واضح في الفترة التاريخية التي تناولتها الدراسة.

ـ وقد رأينا أثر الواقع البيئي والكوارث والمشكلات البيئية المتنوعة وما تخلفه من مجاعات وانتشار للأوبئة وغيرها في مكة في تخلخل التركيبة الطبقية للمجتمع المكي.

ـ كما تبيّن لنا في الحديث عن أثر البيئة في التوزيع السكاني أثر المسجد الحرام في تزايد الكثافة السكانية بالقرب منه. كما اتضح دور طبوغرافية مكة في هذا التوزيع، فضلاً عن أثرها ـ أيضاً ـ في الأشكال العمرانية. إضافة إلى ذلك فقد كان للبيئة الدينية دور في استقطاب أجناس أخرى استقروا في مكة، وكانت لهم أحياء خاصة.

ـ أن القحط ـ الذي ينتج عن جفاف الطقس وانعدام الأمطار أو ندرتها سنوات عديدة ـ قد أثر في الحياة الاجتماعية من خلال انتشار المجاعات، فضلاً عن الأوبئة المهلكة. كما أن تأخر الأمطار أو عدم نزولها في بعض السنوات على بعض الأماكن التي تزود مكة بالمؤن الغذائية كان سبباً لوقوع بعض الأزمات المعيشية فيها.

ـ أن مواسم الحج كانت سبباً في تزايد الغلاء وتتأزم معيشة السكان في مكة خلال بعض المواسم.

ـ كان تعرض السكان في مكة للعطش ـ في الغالب ـ بسبب قلة الأمطار وغور الآبار والعيون، فضلاً عن تعاقب الزمن بمؤثراته البيئية المختلفة على بعض المنشآت المائية الموجودة في مكة. من جانب أخر فقد كان العطش وقلة الماء سبباً في تعرض أهل مكة للكثير من المشكلات والأزمات المختلفة، كما كان ـ أيضا ـ سبباً في تراجع الحجاج عن القدوم إلى مكة.

ـ من جانب آخر فقد تسبب تكاثر الأمطار في رغد عيش أهل مكة، واستقرار

الأوضاع فيها، فضلاً عن رخص الأسعار. بل كان نزول الأمطار مساعداً في حل الكثير من الأزمات والمشكلات المعيشية التي وقعت على المكيين في بعض السنوات.

ـ وقد رأينا كيف كان للكوارث الطبيعية المتمثلة في الجفاف والفيضانات والأعاصير والعواصف ـ بصفة عامة ـ أثر في انتشار الأوبئة والأمراض في أوساط المجتمع المكي. كما لاحظنا مدى تأثير قلة المواد الغذائية الضرورية أو انقطاعها من الأسواق بسبب بعض الكوارث البيئية في الصحة العامة للسكان.

ـ وقد فرضت البيئة في مكة ـ بطبيعتها القاسية وقلة مواردها ـ على أجسام ـ كما رأينا ـ صفات معينة كان للبيئة أثر واضح فيها.

ـ وكانت الكوارث والمخاطر البيئية التي تحل بمكة سبباً في معاناة أهلها للعديد من المشكلات والضغوط النفسية المتمثلة بالخوف والقلق على حياتهم، فضلاً عن انزعاجهم الناتج عن عدم تمكنهم من القيام ببعض العبادات والنسك.

ـ أن بيئة مكة الدينية التي أعطتها مكانة سامقة بين أصقاع المعمورة كأقدس البقاع وأطهرها، قد أثرت بعض الأوقات في تردي الوضع الأمني وجلب القلق والخوف للسكان، بعد تنافس بعض القوى آنذاك على فرض السيادة لكسب تأييد عامة المسلمين.

ـ وكان ضعف موارد مكة المعيشية التي فرضتها طبيعة البلد، قد أجبرت السلطات الموجودة فيها على الارتماء في أحضان قوى أخرى تستطيع أن توفر لهم القدر الكافي من الموارد المعيشية والمالية مقابل الدعوة لهم على منابر مكة، وقد دفع ذلك السلطات الإسلامية المختلفة إلى التنافس على استقطاب ودّ أمراء مكة وجذبهم من خلال بذل الأموال الطائلة، كما أدى ذلك إلى دخولهم في صراعات متنوعة، كانت سبباً في تخلخل الأمن، وبالتالي إرباك حياة سكان مكة وتنغيص معيشتهم. من

جهة أخرى فقد كان للوضع الاقتصادي المتمثل بفقر مكة أثر على أمن السكان، خصوصاً أولئك الموسرين منهم، حيث كانت أموال هؤلاء التجار ـ من مكيين وغيرهم ـ صيداً سهلاً لبعض أمراء مكة ممن لا يتورعون في بعض الأحيان من نهب ممتلكات التجار والمجاورين وغيرهم، وذلك لتغطية النقص الحاصل في مواردهم المالية. إضافة إلى ذلك فإن الفقر المادي لمكة والذي أجبر أهلها للخضوع لقوى من خارج المنطقة قد تسبب في غلاء الأسعار واحتكار بعض السلع.

ـ أن للطبيعة الدينية والجغرافية التي عاشتها مكة دور واضح في تحديد مناشط السكان وأعمالهم وحرفهم.

ـ وقد أدى نفوق أعداد كبيرة من الحيوانات في مكة على أثر بعض الكوارث البيئية إلى التأثير على جوانب مختلفة في حياة السكان المعيشية وأنشطتهم الاقتصادية.

ـ أن الأمطار المتواصلة أو السيول الجارفة كانت سبباً في فقدان الكثير من الممتلكات والمدخرات المختلفة الخاصة بالقاطنين في مكة.

ـ أن بيئة مكة وطبيعتها الجغرافية قد فرضت على سكانها الكثير من العادات والتقاليد، كما أسهمت البيئة الدينية بدور فاعل في إحداث العديد من التغيرات والمستجدات في هذا الجانب.

ـ وكان للتغيرات البيئية التي تعرضت لها مكة خلال الفترة التاريخية التي نتحدث عنها أثر واضح في تأثر بعض مرافق الخدمات المرتبطة بحياة السكان ؛ كالمسالك والطرق والمنشآت العامة وتعطيل البرك والسقايات ومجاري المياه وغور الآبار والعيون. فضلاً عن تأثر الحياة الثقافية بالكوارث والمشكلات البيئية ؛ إما بفقدان بعض العلماء وطلاب العلم في مكة، أو هجرة هؤلاء عنها، أو إحجام من هم خارجها عن المجيء بسبب بعض الكوارث، فضلاً عن تدمير وإضاعة الكتب التي

يستفيد منها أهل مكة عقب بعض السيول الجارفة.

هذا بالإضافة لعدد أخر من النتائج التي تخللت هذه الدراسة، والتي سيتوصل إليها ـ دون عناء ـ كل مطلع. وأخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش والتعليقات

(١) علي محمد مكاوي، البيئة والصحة. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م، ص١٨ ؛ حسن أحمد شحاتة، البيئة والمشكلة السكانية. القاهرة: ط١، مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٩.

(٢) عبد العزيز شاكر الكبيسي، منهج الإسلام في حماية البيئة في مكة المكرمة. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الندوة العلمية الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٥م. المحور السابع، الجزء الأول، ص٢٨٦ ؛ داود عبد الرزاق الباز، مفاهيم أساسية في القانون العام لحماية البيئة. مجلة عالم الفكر، ع٣، م٣٢، مارس ٢٠٠٤م، ص٦١.

(٣) يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، الكويت: المجلس الوطني لثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (٣٠٤)، يونيو ٢٠٠٤م، ص٢٨.

(٤) داود عبد الرزاق الباز، مفاهيم أساسية في القانون العام لحماية البيئة، ص٦١.

(٥) يعقوب أحمد الشراح، التربية البيئية ومأزق الجنس البشري، مجلة عالم الفكر، ع٣، م٣٢، مارس ٢٠٠٤م، ص٢٧.

(٦) يعقوب أحمد الشراح، التربية البيئية ومأزق الجنس البشري، ص٢٨.

(٧) مشاعل بنت محمد آل سعود، معالم ومقومات لتطوير إدارة أزمة الكوارث البيئية مع التطبيق على إدارة السيول والفيضانات. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ع١١٥، س٣٠، ٢٠٠٤م، ص١٣ـ١٥.

(٨) من أهم الجبال في مكة ؛ جبل أبي قبيس، جبل عمر، جبل الكعبة، جبل قعيقعان، جبل ثور، جبل أجياد، جبل حراء، وجبال أذاخر. أما الأودية فأشهرها وادي إبراهيم الذي يرفده أودية منها ؛ وادي المحصب ووادي أجياد، ومن الأودية ـ أيضاً ـ وادي فخ، وادي عرفة، وادي ذي طوى، وغيرها.

(٩) عبد الله بن صالح الرقيبة. الحج إلى مكة المكرّمة: دراسة جغرافية لمنطقة الحج وإعداد الحجاج. (رسالة ماجستير)، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٥هـ، ص٧، ١٢.

(١٠) عبد الله بن صالح الرقيبة. الحج إلى مكة المكرّمة، ص٢٤.

(١١) فايدة كامل بوقري، الخصائص الحرارية لمدينة مكة المكرمة وبعض آثارها على حجاج بيت الله الحرام. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الندوة العلمية الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م. المحور السابع، ج١، ص٢٤٢.

(١٢) من الأقوال التي ذكرت في سبب تسمية مكة بهذا الاسم، لقلة الماء بها. (ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تاريخ المستبصر). تحقيق، أوسكار لوفغرين، ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٦م، ص٣.

(١٣) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى. تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.، ج٣، ص١٧٢ ؛ الزهري، كتاب الجعرافية، اعتنى بتحقيقه، محمد حاج صادق. بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت)، ص٣٦ ؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار). بيروت: دار بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٩٦ ـ ٩٩ ؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة. بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١٣٢.

(١٤) ابن كثير، البداية والنهاية. تحقيق: د. أحمد أبو ملحم ورفاقه. ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١٢، ص٣٢٠ ؛ الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. تحقيق: فؤاد سيد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص٢٠٩، ج٢، ص٩٤، ج٤، ص٣١٧ ـ ٣١٨، ٤٦٩ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٧٥ ـ ١٧٦، ٣٠٣.

(١٥) الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص٤٣٤ ؛ العقد الثمين، ج٤، ص٤١٦، ٤١٧، ج٦، ص٥٩ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٢٢٧.

(١٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣١، ٤٣٢.

(١٧) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(١٨) رحلة ابن جبير، ص١٤٢.

(١٩) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٦ ؛ العقد الثمين، ج١، ص٢٠٩، ج٥، ص٤٢؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٥٢، ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢٠) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٩٣ ؛ الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة. تحقيق: حمد الجاسر، ط١، دار اليمامة، الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج١، ص٢٥٨.

(٢١) الفيضان هو زيادة المياه عن مجاريها وخروجها عن حدودها، وانجرافها بسرعة فائقة، ويحدث الفيضان بسبب الزيادة الكبيرة في كميات الأمطار المتساقطة. (حسن أحمد شحاتة، البيئة والمشكلة السكانية، ص١٠٨).

(٢٢) قام معراج نواب مرزا بتتبع تاريخي للسيول والأمطار التي أحدثت فيضانات عنيفة في مكة من العصر الجاهلي حتى سنة ١٤٠٨هـ فوجد أن عددها (٩٧) حادثة، منها (٣٠) حادثة جرت في الفترة التاريخية التي نتحدث عنها. (الأمطار والسيول بالمشاعر المقدسة. مكة المكرمة: أبحاث وأوراق عمل ندوة السلامة في المشاعر المقدسة. معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج، جامعة أم القرى ١٤٢٣هـ، ج١، ص٢٣٧ ـ ٢٤٣). أما رشدي الصالح ملحس فقد ذكر في الملحق الذي ذيل به أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي من حوادث السيول في الفترة التاريخية التي نتحدث عنها ثلاثين حادثة. (الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من

الآثـار. تحقيـق، رشـدي الـصالح ملحـس، مكـة المكرمـة: ط٩، دار الثقافـة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ج٢، ص٣١٥ ـ ٣٢١ ـ ملحق رقم ٣).

(٢٣) يمكن تقسيم السيول التي تجتاح مكة حسب شدتها إلى ثلاثة أقسام ؛ القسم الأول: سيول الدرجة الأولى، وهي السيول التي غمرت صحن الحرم إلى أن وصل مستوى المياه إلى قفل باب الكعبة المعظمة أو أعلى. القسم الثـاني: سـيول الدرجـة الثانيـة، وهي السيول التي غمرت صحن الحرم ووصل مستوى المياه ما بين الحافـة الـسفلية لباب الكعبة المعظمة وقفل الباب. القـسم الثالـث: سـيول الدرجـة الثالثـة، وهـي السيول التي تغمر صحن الحرم وتصل إلى الجزء السفلي من الحجر الأسود. (سامر أحمد سمير شومان، السجل التاريخ للسيول في وادي إبراهيم وأثرها على المـسجد الحرام. مكة المكرمة: أبحاث وأوراق عمل ندوة السلامة في المشاعر المقدسة. معهـد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج، جامعة أم القرى ١٤٢٣هـ، ج١، ص٢٠٨ .

(٢٤) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٥٠٤.

(٢٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٣١٦ (ملحق رقم ٣) ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الـورى، ج٣، ص١٠٠.

(٢٦) السيوطي، حسن المحاضـرة في تـاريخ مـصر والقـاهرة. تحقيـق، محمـد أبـو الفـضل إبراهيم. القاهرة: ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ج٢، ص٥٢ ؛ محمـد طـاهر الكـردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم. تحقيق، عبد الملك بن دهيش، بـيروت: ط١، دار خضر، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٢، ص٢٤٦.

(٢٧) شفاء الغرام، ج٢، ص٤٢٦.

(٢٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٣١٧ (ملحـق رقـم ٣) ؛ محمـد بـن أحمـد الـصباغ، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام. تحقيـق، عبـد الملـك بـن دهـيش. مكـة المكرمـة: ط١، ١٤٢٤هــ/ ٢٠٠٤م، ج٢، ص٨٧٥ ؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم، ج٢، ص٢٤٧.

(٢٩) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٤١٩ ؛ الطبري، الأرج المسكي في التاريخ المكي. تحقيق، أشرف أحمد الجمال. مكة المكرمة، ط١، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٠٧ ؛ محمد بن أحمد الصباغ، تحصيل المرام، ج٢، ص٨٧٥.

(٣٠) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٦٩ ـ ٧٠.

(٣١) التاريخ القويم، ج٢، ص٢٤٨.

(٣٢) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٣٧ ؛ الطبري، الأرج المسكي، ص١٠٤.

(٣٣) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م، ج٢، ص١٢ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٥٠٤.

(٣٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص١٣٩، ج٤، ص٩٢ ـ ٩٣ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٣٥) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ. بيروت: ط٢، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٨، ص٢٢٦ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٥٠٤. وذكر ابن فهد أنهم نحو ألف إنسان.

(٣٦) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا. ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج١٨، ص٥٠؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٣٧.

(٣٧) شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٣.

(٣٨) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٣٧.

(٣٩) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٧ ؛ العقد الثمين، ج١، ص٢١٠ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٨٠.

(٤٠) شفاء الغرام، ج٢، ص٤٤٢.

(٤١) إتحاف الورى، ج٣، ص٦٠٧.

(٤٢) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٨، ص٣٠١ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٥٠٤.

(٤٣) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٧٠.

(٤٤) إتحاف الورى، ج٤، ص١٤٠.

(٤٥) إتحاف الورى، ج٤، ص٦١٢.

(٤٦) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق: د. محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٩٠.

(٤٧) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٠ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٢٦٥.

(٤٨) المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٢ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٤١.

(٤٩) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٢٠٩ ؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٩٧ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٥٠) الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص٢٣٤ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٢٨.

(٥١) شفاء الغرام، ج٢، ص٤٢٥.

(٥٢) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٢٥ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٢٠٠.

(٥٣) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٥٩٠.

(٥٤) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٦٥٥.

(٥٥) ذكر ناصر خسرو أن سكان مكة كان عددهم ـ عند وجوده فيها سنة ٤٤٢هـ ـ (٢٥٠٠) نسمة، منهم (٥٠٠) من المجاورين. كما أشار إلى أن مكة تعرضت في هذه السنة لقحط شديد بحيث غادر البلاد بسبب ذلك كثير من أهلها والمجاورين من شدة الجوع وعموم الجدب. (سفر نامة: رحلة ناصر خسرو القبادياني. ترجمة وتقديم: د. أحمد خالد البدلي، ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٢٨٣م، ص١٤٠). وهذا ـ بلا شك ـ سيمتد أثره على التركيبة السكانية في مكة خلال القرن السادس الهجري.

(٥٦) ضيف الله يحيى الزهراني، أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال الفترة (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م). مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٧١.

(٥٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٣٨ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٥٣.

(٥٨) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٦.

(٥٩) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٢٠٩ ؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٩٧ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٦٠) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٥.

(٦١) أحمد عمر الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ ـ ٤٨٧هـ). ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٥١.

(٦٢) ذكر ناصر خسرو أن نسبة المجاورين والغرباء في مكة بلغت في منتصف القرن الخامس الهجري تقريباً خمس سكان مكة. (سفر نامة، ص١٤٠).

(٦٣) انظر ؛ عبد العزيز راشد السنيدي، المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (٥٧٠ ـ ٦٦٠هـ). مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الندوة العلمية

الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.المحور الثالث، ج٢، ص١٠ ـ ٢٣ ؛ طرفه عبد العزيز العبيكان، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٢٣١ ؛ منى حسن المشاري، المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي. (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ١٤٠٩هـ، ص٣٤٠.

(٦٤) للوقوف على عدد من العناصر التي قدمت مكة ومهامها في مكة، انظر ؛ عبد العزيز السنيدي، المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (٥٧٠ ـ ٦٦٠هـ)، ص٣٣ ـ ٤١ ؛ منى المشاري، المجاورون في مكة والمدينة، ص١١١ ـ ١١٩.

(٦٥) سعاد إبراهيم الحسن، النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ). (رسالة ماجستير)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٥هـ، ص٣٠٠. وعن العوامل التي ساعدت على ازدهار مكة، انظر (أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٥ ـ ١٥٦).

(٦٦) انظر ؛ سعاد إبراهيم الحسن، النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي، ص٣٠٠ ـ ٣٣٤.

(٦٧) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عصر سلاطين المماليك. القاهرة: ط٢، دار المعارف، ١٩٨٣م، ص١٧١ ـ ١٧٢.

(٦٨) حسن أحمد شحاتة، البيئة والمشكلة السكانية، ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٦٩) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٩٩.

(٧٠) بيّنت ذلك الكثير من الكتب التي تحدثت عن الجوانب السابقة في مكة، ومن ذلك أخبار مكة للأزرقي، أخبار مكة للفاكهي، شفاء الغرام والعقد الثمين للفاسي، وكذلك بعض كتب الرحلات كابن جبير وابن بطوطة وغيرهما.

(٧١) عبد الله بن صالح الرقيبة. الحج إلى مكة المكرّمة، ص٢٦.

(٧٢) النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام. تحقيق، هشام عبد العزيز عطا. مكة المكرمة: ط١، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٤٢.

(٧٣) في الخرائط التي وضعها عبد الملك بن دهيش لمنازل مكة في أخر كتابي أخبار مكة للأزرقي وأخبار مكة للفاكهي ـ بناء على ما ورد من تحديد لهذه المنازل في الكتب نفسها ـ إيضاح لما ذهبنا إليه من قول هنا.

(٧٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص١٣٩ ؛ ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص٩.

(٧٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥ ؛ ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص٩.

(٧٦) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(٧٧) سفر نامة، ص١٤٠.

(٧٨) المحجوب، قرة العين في أوصاف الحرمين. (مخطوط)، المكتبة الوطنية، باريس، رقم (١٢٠٣) عربي، ق٥٣ أ.

(٧٩) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص١٤٤.

(٨٠) إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط. الدار البيضاء: مطابع أفريقيا الشرق، ١٩٩٦م، ص٢٩٤.

(٨١) ابن جبير، الرحلة، ص١٣٩ ـ ١٤٢ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٥٤٧.

(٨٢) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٢٧١ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٧٠.

(٨٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٢ ـ ٤٣٣ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٩٠.

(٨٤) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٤.

(٨٥) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٥ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٧٣، ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٨٦) إتحاف الورى، ج٣، ص١٥٨.

(٨٧) الأردب، مكيال ساد استخدامه في مصر والحجاز. ويساوي ٦٩,٦ كغم، أو حوالي ٩٠ لتراً. (ضيف الله الزهراني، أسعار المواد الغذائية، ص١٠٦).

(٨٨) عملة من الدراهم، تنسب للملك المسعود بن الكامل الأيوبي الذي حكم اليمن خلال الفترة (٦١١ ـ ٦٢٦هـ)، قال القلقشندي عن الدرهم المسعودي: ((من فضة خالصة، مربع الشكل، زنته نحو نصف، ثم نقص حتى صار نحو السدس، يعبرون عنه بالمسعودي نسبة إلى الملك المسعود صاحب اليمن، وهو في المعاملة بثلثي درهم كاملي)). (صبح الأعشى في صناعة الإنشا. شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٤، ص٢٨٠). وقد استمر التعامل بهذه العملة حتى نهاية العصر المملوكي. (ضيف الله الزهراني، أسعار المواد الغذائية، ص١٠٦).

(٨٩) تعرف هذه السنة بسنة أم جرب، حيث أصيبت المواشي في مكة بالجرب. (الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٧).

(٩٠) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٧.

(٩١) إتحاف الورى، ج٣، ص٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٩٢) الغرارة مكيال لأهل الشام. يعادل ٢٠٤,٥ كغم أو حوالي ٢٦٥ لتراً. (ضيف الله الزهراني، أسعار المواد الغذائية، ص١٠٥).

(٩٣) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٢٧. لمزيد من المعلومات عن سنوات الغلاء التي اجتاحت مكة وأسبابها، انظر (ضيف الله الزهراني، أسعار المواد الغذائية، ص٦٩ ـ ٩١ ؛ سعاد الحسن، النشاط التجاري في مكة المكرمة، ص١٩٨ ـ ٢٠٧).

(٩٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص١٤٤.
(٩٥) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٩٠.
(٩٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٤٠ ـ ٤٤١.
(٩٧) انظر ؛ ضيف الله الزهراني، أسعار المواد الغذائية، ص٦٩ ـ ٩١.
(٩٨) المحجوب، قرة العين، ق٥٣ أ.
(٩٩) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٥.
(١٠٠) إتحاف الورى، ج٣، ص٣٣٧.
(١٠١) الويبة: مكيال مصري بالدرجة الأولى، ومقداره عشرة أمنان، والمن يساوي رطلين كل رطل ١٣٠ درهماً، وهو يعادل ١٢,١٦٨ كغم قمح. (ضيف الله الزهراني، أسعار المواد الغذائية، ص١٠٧).
(١٠٢) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٤٠.
(١٠٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٢٦٦، ٣٠٢، ٣٤٧ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والترجمة والنشر، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ج٧، ص٣٠، ج٩، ص٢٧٢ ـ ٢٧٣ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٤٦، ٥٠، ٧٥، ٩٠.
(١٠٤) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٧٥.
(١٠٥) إتحاف الورى، ج٣، ص١٢٥.
(١٠٦) هو أحمد بن موسى بن علي بن عجيل، أحد مشاهير العلماء في بلاد اليمن، ولد سنة ٦٠٨هـ، وقد تفقه به عدد كبير من طلبة العلم في اليمن، وكان إماماً في الفقه والحديث والفرائض والنحو واللغة. توفي سنة ٦٩٠هـ. (الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية. عني بتصحيحه وتنقيحه الشيخ محمد بسيوني عسل، طبع

ضمن مجموعة جب التذكارية ـ مطبعة الهلال ـ مصر ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، ج١، ص٢٥٧ ـ ٢٦٠.

(١٠٧) قال محقق كتاب إتحاف الورى: ((ولعل المراد بالقصر هنا هو قصر العابدية، فعنده عيون ويقع غربي عرفة، وله ذكر في الأشعار العربية القديمة)). (نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٢٥، حاشية رقم ٣).

(١٠٨) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٥٩ ـ ٦٠. وينسب هذا الدينار للسلطان المملوكي الأشرف برسباي (٨٢٥ ـ ٨٤١هـ)، وقد ضرب سنة ٨٢٩هـ. (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٨٤). وزنته ٣,٤١ جرام ذهب. وكان من العملات الرائجة الانتشار في مكة حتى نهاية العصر المملوكي. (ضيف الله الزهراني، أسعار المواد الغذائية، ص١٠٧).

(١٠٩) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص١٦٦ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٧٢ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٩٣.

(١١٠) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٤١ .

(١١١) إتحاف الورى، ج٣، ص١٤٦ .

(١١٢) إتحاف الورى، ج٣، ص١٠١ .

(١١٣) شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٨.

(١١٤) ضيف الله الزهراني، أسعار المواد الغذائية، ص٧٨.

(١١٥) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٧٦٣.

(١١٦) كان أول بيمارستان أنشى في مكة هو البيمارستان المستنصري الذي أقامه سنة ٦٢٨هـ الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٤ـ٦٤٠هـ). انظر ؛ (الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٢٣ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٠١) .

(١١٧) إتحاف الورى، ج٣، ص٢٦٥.

(١١٨) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٢١٠ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٧٩.

(١١٩) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٩٦.

(١٢٠) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٢٧١ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٣٤ ؛ الجزيري، درر الفرائد المنظمة، ج١،ص٥٧٠.

(١٢١) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٧ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(١٢٢) محمد أحمد رشوان، تلوث البيئة وكيف عالجه الإسلام. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إدارة الثقافة والنشر، ١٤١٤هـ/ ١٩٤م، ص٢٣ـ٢٤.
الجدير بالذكر أن أهل مكة قد فطنوا إلى الأثر الصحي المؤثر سلباً على الإنسان من قرب السكن حول أماكن المواشي والدواجن فنراهم يضعون أسواق بيعها في أطراف مكة، بعيدة عن المسجد الحرام وكذلك أماكن سكنهم. انظر: الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ج٢، ص١٩٦، ج٣، ص١٠٠، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٩٩

(١٢٣) محمد جابر قاسم، علاج المشكلات البيئية في ضوء الإسلام. دبي: ط١، دار القلم، ٢٠٠٥م، ص٦٢.

(١٢٤) يقول إبراهيم سليمان الأحيدب عن أثر نقص الماء على الإنسان: ((ويبقى جسم الإنسان في حالة توازن حيث أن ما يكتسبه الجسم من الماء يساوي ما يفقده. وفي حالة تجاوز ا يفقده ما يكسبه من الماء، كأن يتعرض الإنسان لإسهال شديد أو لحرارة جو عالية يؤدي إلى زيادة كمية المفقود من الماء من الجسم بواسطة العرق فإن الجسم يصاب بالمرض، وأحياناً يؤدي إلى الجفاف والموت. (المناخ والحياة: دراسة في المناخ التطبيقي. الرياض: المؤلف، ١٤٢٣هـ، ص٩٩ ـ ١٠٠).

(١٢٥) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٢٤ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٠٠، ٢١٤.

(١٢٦) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٩٣.

(١٢٧) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص١١٦.

(١٢٨) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٣٥٠.

(١٢٩) قال ابن منظور، لاث الشئ لوثاً، خلطه. ولوَّث الماء: كدره. (لسان العرب. تحقيق: نخبة من العاملين بدار المعارف، القاهرة: دار المعارف، (د. ت)، ج٧، ص٤٠٩٤). والتلوث: كل تغير في الصفات الطبيعية للماء أو الهواء أو التربة، بحيث تصبح غير مناسبة للاستعمالات المقصودة منها. والتلوث إما أن يكون طبيعياً، ينشأ بفعل العوامل الطبيعية كالزلازل والبراكين والفيضانات، وإما أن يكون بشرياً يرجع إلى فعل الإنسان ويحدث خللاً في توازن البيئة بسبب إهماله وعدم اكتراثه. (داود عبد الرزاق الباز، مفاهيم أساسية في القانون العام لحماية البيئة، ص٦٣، ٦٤).

(١٣٠) وقد ذكر محمد أحمد رشوان أن الحكمة من دفن الموتى في الإسلام لتجنب تلوث البيئة الذي يهدد بالهلاك بسبب التعفن. (تلوث البيئة وكيف عالجه الإسلام، ص٥٤). والمعروف ـ أيضاً ـ أن سنة دفن الميت في الإسلام تعدُ إكرام له.

(١٣١) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٢١٣.

(١٣٢) خسرو، سفر نامة، ص١٣٩.

(١٣٣) حسن أحمد شحاتة، البيئة والمشكلة السكانية، ص١٠٨.

(١٣٤) إبراهيم الأحيدب، المناخ والحياة، ص١٠٢.

(١٣٥) محمد جابر قاسم، علاج المشكلات البيئية، ص٧٦. الجدير بالذكر أن حكومة المملكة العربية السعودية قد فطنت لأهمية ذلك، فحرصت على تعميم زراعة الأشجار في مكة والمشاعر المقدسة.

(١٣٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٠، ٩٩.

(١٣٧) أحسن التقاسيم، ص٩٠.

(١٣٨) محمد جابر قاسم، علاج المشكلات البيئية، ص١٤٧ ؛ محمد علي مكاوي، البيئة والصحة، ص٨٧.

(١٣٩) النسفي، تفسير النسفي، بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ت)، ج٤، ص٣٧٨.

(١٤٠) أحسن التقاسيم، ص٩٠.

(١٤١) شفاء الغرام، ج٢، ص٤٢٤.

(١٤٢) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٢١٢.

(١٤٣) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٠٠.

(١٤٤) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٥٦٧.

(١٤٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٣٨ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٥٢.

(١٤٦) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٣ ؛ الجزري، الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٥٦٤.

(١٤٧) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص١٤٣.

(١٤٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص١٣٥.

(١٤٩) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٩٨ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٠ ؛ أحمد السباعي، تاريخ مكة. مكة المكرمة: ط٧، نادي مكة الثقافي، ١٤١٤هـم١٩٩٤م، ص٢٨٠ ـ ٢٨١ ؛ سعاد الحسن، النشاط التجاري في مكة، ص٢١٥ ـ ٢٣٠.

(١٥٠) خسرو، سفر نامة، ص١٣٩.

(١٥١) عن صناعة الجلود وتطورها في مكة، انظر ؛ (أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٨٩ ـ ١٩٢).

(١٥٢) ابن جبير، الرحلة، ص١٣٩ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٤٧ ـ ٥٤٨.

(١٥٣) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٢٣٨.

(١٥٤) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٧.

(١٥٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٣١٧ (ملحق رقم ٣).

(١٥٦) أشار ابن جبير إلى وجود بعض البساتين في مكة خاصة بالزاهر والمسفلة. (رحلة ابن جبير، ص٨٩، ٩٣).

(١٥٧) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٤٤٧؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٠٤.

(١٥٨) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٢٤ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٠٠.

(١٥٩) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٢٤ ـ ٤٢٥ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٩٣.

(١٦٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ١٩١ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٢١٣. وذكر ابن كثير أن عدد البيوت التي سقطت في هذا السيل حوالي ثلاثين بيتاً.

(١٦١) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٣١٧ (ملحق رقم ٣).

(١٦٢) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٦٩ ـ ٧٠ ؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم، ج٢، ص٢٤٨.

(١٦٣) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٥٤٠.

(١٦٤) قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٧٦.

(١٦٥) إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، ص٢٩٤.

(١٦٦) قرة العين، ق٥٣ أ.

(١٦٧) نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص١٤٥.

(١٦٨) أحسن التقاسيم، ص٩٧.

(١٦٩) طرفه العبيكان، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص٢٩٠ ـ ٢٩١.

(١٧٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٠.

(١٧١) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت)، ج١، ص١٤١ ؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص١٤٩.

(١٧٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٩٠.

(١٧٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٤٨.

(١٧٤) ابن رشيد الفهري، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة. أو (ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة من الشام ومصر ومكة وطيبة). بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ، ج٥، ص١٢٩.

(١٧٥) المحجوب، قرة العين، ق٥٣ أ.

(١٧٦) عواطف محمد نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين: دراسة تحليلية مقارنة. الرياض: ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م. ص٢١٥.

(١٧٧) ابن رشيد، ملء العيبة، ج٥، ص٢٦٤. نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٣٣، ١٣٧. وقد ألغيت هاتين البدعتين خلال عامي ٧٠١ ـ ٧٠٢هـ. (إتحاف الورى، ج٣، ص١٣٣، ١٣٧).

(١٧٨) عواطف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، ص٢٢٦ ـ ٢٣٠.

(١٧٩) صفة بلاد اليمن، ص٦ ـ ٧.

(١٨٠) وكما هو واضح فإن ابن المجاور يقصد بذلك تفاعل المكيين التام مع الحجاج وارتباطهم التام بهم حتى كأنهم يؤدون المناسك معهم، وينطبق عليهم ما ينطبق على الحاج من واجبات وأحكام.

(١٨١) طرفه العبيكان، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص٢٧١ وما بعدها.

(١٨٢) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص٣٠٩.

(١٨٣) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٥٠.

(١٨٤) صفة بلاد اليمن، ص٥.

(١٨٥) النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص٤٥.

(١٨٦) يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، ص٢٠.

(١٨٧) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. دار الجيل، بيروت (د. ت)، ج٣، ص٢١١ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٧٢، ١٨٥، ٢٤٣، ٣٠٤.

(١٨٨) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٠٢ ؛ العقد الثمين، ج٣، ص٣٢٥ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٥٠، ٩٠، ١٨١ ـ ١٨٢، ٢٣٥، ٣٠٤، ٣٧٨، ٤٠٦، ج٤، ص١٥٣، ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(١٨٩) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٣، ٤٣٧، نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص١٠٢، ٢٣٨، ٣٨٠، ج٤، ص٦٢٤ ـ ٦٣٣.

(١٩٠) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٣٦ ؛ العقد الثمين، ج١، ص٢٠٩، ج٥، ص٤٩٢ ؛ ضيف الله الزهراني، أسعار المواد الغذائية، ص٧١.

(١٩١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص١٦٦ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٧٢ ؛ نجم الدين ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤٩٣.

(١٩٢) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٤٢٥ ؛ العقد الثمين، ج٣، ص٤٠٠ ؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٨، ص٣٠١ ؛ محمد بن أحمد الصباغ، تحصيل المرام، ج٢، ص٨٧٤.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

الإدريسي، محمد بن محمد بن عبيد الله (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م).

ـ **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت).

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت حوالي ٢٥٠هـ/ ٨٦٣م).

ـ **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**. تحقيق، رشدي الصالح ملحس، مكة المكرمة: ط٩، دار الثقافة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي(ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)

ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. القاهرة: طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والترجمة والنشر، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م).

ـ **رحلة ابن بطوطة**. بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م).

ـ **رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)**. بيروت: دار بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

الجزيري: عبد القادر بن محمد (من أهل ق ١٠هـ/ ١٦م).

ـ **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**. تحقيق: حمد الجاسر، الرياض: ط١، دار اليمامة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م).

ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا. بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).
- **إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ**. بيروت: ط٢، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**. بيروت: دار الجيل، (د. ت).
الخزرجي: أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م).
- **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**. عني بتصحيحه وتنقيحه الشيخ محمد بسيوني عسل، طبع ضمن مجموعة جب التذكارية. مصر: مطبعة الهلال، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.
خسرو، ناصر علوي خسرو القبادياني (ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م).
- **سفر نامة (رحلة ناصر خسرو القبادياني)**. ترجمة وتقديم: د. أحمد خالد البدلي، ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٢٨٣م.
ابن رشيد الفهري، محمد بن عمر بن محمد بن رشيد (ت٧٢١هـ).
- **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة. أو (ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة من الشام ومصر ومكة وطيبة)**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ.
الزهري، محمد بن أبي بكر (ت في حوالي منتصف ق٦هـ/ الحادي عشر الميلادي).
- **كتاب الجعرافية**. اعتنى بتحقيقه، محمد حاج صادق. بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت).
السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**. تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
الطبري، علي بن عبد القادر (ت١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م).
- **الأرج المسكي في التاريخ المكي**. تحقيق، أشرف أحمد الجمال. مكة المكرمة: ط١، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م).

ـ **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام.** تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت: ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ـ **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.** تحقيق: فؤاد سيد، بيروت: ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ابن فهد، النجم عمر بن فهد بن محمد المكي (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م).

ـ **إتحاف الورى بأخبار أم القرى.** تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة: ط١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا.** شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين. بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

ـ **البداية والنهاية.** تحقيق: د. أحمد أبو ملحم ورفاقه. بيروت: ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ابن المجاور،... بن محمد بن مسعود البغدادي النيسابوري (ت بعد ٦٢٦هـ/ ١١٢٩م).

ـ **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تاريخ المستبصر).** تحقيق، أوسكار لوفغرين، ليدن: مطبعة بريل، ١٩٣٦م.

المحجوب، أبو عبد الله محمد (عاش في ق ٩ هـ/ ٥م)

ـ **قرة العين في أوصاف الحرمين.** (مخطوط)، المكتبة الوطنية، باريس، رقم (١٢٠٣) عربي.

المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م).

ـ **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.** تحقيق: د: محمد مخزوم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).

ـ **السلوك لمعرفة دول الملوك.** تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة: ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.
ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ/ ١٣١١م).
ـ **لسان العرب.** تحقيق: نخبة من العاملين بدار المعارف، القاهرة: دار المعارف، (د. ت).
النسفي، عبد الله بن أحمد.
ـ **تفسير النسفي.** بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ت).
النهروالي، محمد بن أحمد (ت٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م).
ـ **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام.** تحقيق، هشام عبد العزيز عطا. مكة المكرمة: ط١، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

ثانياً: المراجع.

إبراهيم حركات.
ـ **النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط.** الدار البيضاء: مطابع أفريقيا الشرق، ١٩٩٦م.
إبراهيم سليمان الأحيدب.
ـ **المناخ والحياة: دراسة في المناخ التطبيقي.** الرياض: المؤلف، ١٤٢٣هـ.
أحمد السباعي.
ـ **تاريخ مكة (دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران).** مكة المكرمة: ط٧، نادي مكة الثقافي، ١٤١٤هـم١٩٩٤م.
أحمد بن عمر الزيلعي.
ـ **مكة وعلاقاتها الخارجية ((٣٠١ـ٤٨٧هـ)).** ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
داود عبد الرزاق الباز.
ـ **مفاهيم أساسية في القانون العام لحماية البيئة.** مجلة عالم الفكر، ع٣، م٣٢، مارس ٢٠٠٤م.

سامر أحمد سمير شومان.
ـ **السجل التاريخ للسيول في وادي إبراهيم وأثرها على المسجد الحرام**. مكة المكرمة: أبحاث وأوراق عمل ندوة السلامة في المشاعر المقدسة. معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج، جامعة أم القرى ١٤٢٣هـ
سعاد إبراهيم الحسن.
ـ **النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ)**. (رسالة ماجستير)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٥هـ.
ضيف الله يحيى الزهراني.
ـ **أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال الفترة (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)**. مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
طرفه عبد العزيز العبيكان.
ـ **الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة**. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
عبد العزيز راشد السنيدي.
ـ **المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (٥٧٠ ـ ٦٦٠هـ)**. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الندوة العلمية الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
عبد العزيز شاكر الكبيسي.
ـ **منهج الإسلام في حماية البيئة في مكة المكرمة**. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الندوة العلمية الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٥م.
عبد الله صالح الرقيبة.

ـ **الحج إلى مكة المكرّمة: دراسة جغرافية لمنطقة الحج وإعداد الحجاج**. (رسالة ماجستير)، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٥هـ.

عواطف محمد نواب.

ـ **الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين: دراسة تحليلية مقارنة**. الرياض: ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

فايدة كامل بوقري.

ـ **الخصائص الحرارية لمدينة مكة المكرمة وبعض آثارها على حجاج بيت الله الحرام**. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الندوة العلمية الكبرى بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٥م.

قاسم عبده قاسم.

ـ **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عصر سلاطين المماليك**. القاهرة: ط٢، دار المعارف، ١٩٨٣م.

محمد أحمد رشوان.

ـ **تلوث البيئة وكيف عالجه الإسلام**. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إدارة الثقافة والنشر، ١٤١٤هـ/ ١٩٤م.

محمد بن أحمد الصباغ.

ـ **تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام**. تحقيق، عبد الملك بن دهيش. مكة المكرمة: ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

محمد جابر قاسم.

ـ **علاج المشكلات البيئية في ضوء الإسلام**. دبي: ط١، دار القلم، ٢٠٠٥م.

محمد طاهر الكردي.

- **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم**. تحقيق، عبد الملك بن دهيش، بيروت: ط١، دار خضر، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
مشاعل بنت محمد آل سعود.
- **معالم ومقومات لتطوير إدارة أزمة الكوارث البيئية مع التطبيق على إدارة السيول والفيضانات**. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ع١١٥، س٣٠، ٢٠٠٤م.
معراج نواب مرزا.
- **الأمطار والسيول بالمشاعر المقدسة**. مكة المكرمة: أبحاث وأوراق عمل ندوة السلامة في المشاعر المقدسة. معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج، جامعة أم القرى ١٤٢٣هـ.
منى حسن المشاري.
- **المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي**. (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ١٤٠٩هـ.
يحيى وزيري.
- **العمارة الإسلامية والبيئة**. الكويت: المجلس الوطني لثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (٣٠٤)، يونيو ٢٠٠٤م.
يعقوب أحمد الشراح.
- **التربية البيئية ومأزق الجنس البشري**. مجلة عالم الفكر، ع٣، م٣٢، مارس ٢٠٠٤م.